

مصطفى محمود

القرآن

محاولة لفهم عصرى للقرآن



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

القرآن

محاولة لفهم عصرى للقرآن

مصطفى محمود

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

« قرآن كريم »

المعمار القرآني

كان أول لقاء لي مع القرآن وأنا في الرابعة من العمر طفلا
أجلس في صف بين عدة صفوف في كتاب الشيخ محمود
أحلق في بلاهة الى سبورة والى مؤشر يتحرك في يد الشيخ
على كلمات منقوشة بالطباشير وهو يتلو .. « والضحي والليل
إذا سجي » .. فنردد خلفه في آلية .. « والضحي والليل إذا
سجي » .. لا نفهم من الكلام حرفا .. ولا نعلم ما الضحي
ولا كيف سجي . ولكننا نردد مجرد مقاطع ومخارج حروف .
وكان عقلي آنذاك صفحة بيضاء نقية لم يكتب عليها شيء ولم
تتلق تأثيرا تربويا خاصا فقد نشأت في أسرة كل فرد فيها
متروك لحاله .. يحب ما يحب ، ويكره ما يكره ، ويلعب حتى
يشبع لعبا . وأذكر أنني رسبت في السنة الأولى ثلاث سنوات
دون أن أتلقى تعنيفا .. وكان الصفر بالقلم الأحمر يزين كل
صفحة من كراساتى مرة بعد مرة فلا يثير الا الضحك . وكانوا
إذا سألوني ماذا أخذت اليوم ، كنت أقول اختصارا للمهزلة
وحتى لا أعود الى شرح حكاية الصفر اليومي التي أصبحت
بالنسبة لي مملّة .. كنت أقول .. زى العادة .. وكانوا
يضحكون .

هكذا كانت تجرى الامور فى بيتنا ، لا ارغام على المذاكرة .
ولا قهر على تدين . . وانما لكل حياته . . وعلى كل تبعته .
لم نعرف غسيل المخ الذى عرفه كثير من الاطفال فى أسر
متزمتة تحشر العلم والدين حشرا فى عقول أطفالها بالكرباج
والعصا .

كنت اذن أتلقى أول عبارة من القرآن بذهن أبيض تماما
ودون تأثير مسبق مثلما أتلقى دروس الحساب والجغرافيا
والانشاء .

وكما بهرتنى حكاية الكرة الارضية المدورة والقارات كالجزر
سابحة فيها ، وكما بهرتنى حكاية القمر يدور حول الارض ،
والارض حول الشمس . . والكل معلق فى السماء ، كذلك فعل
بى القرآن شيئا .

وأحار فى وصف الشعور الذى تلقيت به أول عبارة فى
القرآن .

ولا أجد الكلمات لتشرح هذا النوع من الاستقبال النفسى
الغامض . . وكيف كانت الكلمات تعود من تلقاء نفسها فتراود
سمعى وذاكرتى وأنا وحدى فأرائى أردد بلا صوت . . « **والضحى**
والليل اذا سجدى »

وتقتحم على العبارة القرآنية سكون طفولتى فأتذكر فى ظلام
الليل القاء الشيخ وهو يردد : « **وجاء من أقصى المدينة رجل**
يسعى »

تسعى العبارة الى خيالى وكأنها مخلوق حى مستقل له
حياته الخاصة .

وقطعا أنا لم أكن أعلم ما الضحى ولا كيف سجدى الليل . .
ولا من هو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى .

ولعل المقاطع كانت تتردد فى سمعى أشبه بمقاطع سلم
موسيقى . . (صول لاسى دو رى مى فا) . . مجرد حروف

لا معنى لها ولا وقع سوى مدلولها الموسيقى . . مجرد نغم
ومازورات موسيقية وإيقاع يطرب الوجدان .

نعم . . لقد اكتشفت منذ تلك الطفولة البعيدة دون أن
أدرى حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية .

وهذا سر من أعمق الاسرار في التركيب القرآني . . انه
ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع . . وانما هو
معمار خاص من الالفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقى
الباطنة فيها .

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة .
وكمثل نأخذ بيتا لشاعر مثل عمر بن أبي ربيعة اشتهر
بالموسيقى في شعره . . البيت الذي ينشد فيه :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي

أتحب القتل أخت الرباب

أنت تسمع وتطرب وتتمتز على الموسيقى . . ولكن الموسيقى
هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في أشطار متساوية
ثم تقفيل كل عبارة تقفيلًا واحدًا على الباء الممدودة .

الموسيقى تصل الى أذنك من خارج العبارة وليس من
داخلها . من التقفيلات (القافية) . . ومن البحر والوزن . أما
حينما تتلو :

« والضحي والليل اذا سجي »

فأنت أمام شطرة واحدة . . وهي بالتالي تخلو من التقفية
والوزن والتشطير ، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف
فيها . من أين ، وكيف ؟

هذه هي الموسيقى الداخلية .

الموسيقى الباطنة •

سر من أسرار المعمار القرآني لا يشاركه فيه أي تركيب أدبي
وكذلك حينما تقول :

« الرحمن على العرش استوى »

(طه - ٥)

و حينما تتلو كلمات زكريا لربه :

« قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا
ولم اكن بدعائك رب شقيا »

(مريم - ٤)

أو كلمة الله لموسى :

« ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما
تسعى »

(طه - ١٥)

أو كلمته تعالى وهو يوعده المجرمين :

« اذ من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها
ولا يحيا »

(طه - ٧٤)

كل عبارة بنيان موسيقى قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من
داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدري
كيف تتم •

و حينما يروى القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب
السيمفوني المذهل :

ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبدى فأضرب لهم
طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم
فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون
قومه وما هدى «

(طه - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩)

كلمات فى غاية الرفه مثل « يبسا » أو لا تخاف « دركا »
بمعنى لا تخاف ادراكا .

ان الكلمات لتذوب فى يد خالقها وتصطف وتتراص فى
معمار ووصف موسيقى فريد هو نسيج وحده بين كل ما كتب
بالعربية سابقا ولاحقا .

لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلى ولا بينه وبين الشعر
والنثر المتأخر ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ
رغم كثرة الاعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن .

فى كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها
تماما . . . وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها
مصدرا آخر غير ما نعرف .

اسمع هذا الايقاع المنعم الجميل :

« رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من امره على من
يشاء من عباده لينذر يوم التلاق »

(غافر - ١٥)

« فلق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت
من الحى »

(الانعام - ٩٥)

« فلق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر
حسابا »

(الانعام - ٩٦)

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »

(غافر - ١٩)

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار »

(الأنعام - ١٠٣)

« وسع ربنا كل شيء علما »

(الأتراف - ٨٩)

ثم هذه العبارة الجديدة في تكوينها وصياغتها . . العميقة في معناها ودلالاتها على العجز عن ادراك كنه الخالق :

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »

(الرعد - ٩)

« يجادلون في الله وهو شديد المحال »

(الرعد - ١٣)

ثم هذا الاستطراد في وصف القدرة الإلهية :

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما نسفط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين »

(الأنعام - ٥٩)

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هي كل ما انفردت به العبارة الثرآنية ، وانما مع الموسيقى صفة أخرى هي الجلال . وفي العبارة البسيطة المقتضية التي روى بها الله نهاية قصة الطوفان تستطیع أن تلمس ذلك الشيء « الهائل » « الجليسل » في الالفاظ :

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسمها ، أقلامي وغيض الماء وقضي الامر »

(هود - ٤٤)

تلك اللمسات الهائلة .. كل لفظ له ثقل الجبال ووقع
الرعود .. تنزل فاذا كل شيء .. صمت .. سكون ، هدوء ،
وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة الى ختامها :

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء
وقضى الأمر »

(هود - ٤٤)

انك لتشعر بشيء غير بشرى تماما فى هذه الالفاظ الهائلة
الجليلة المنحوتة من صخر صوان وكان كل حرف فيها جبل
الالب .

لايمكنك أن تغير حرفا أو تستبدل كلمة بأخرى أو تؤلف
جملة مكان جملة تعطى نفس الايقاع والنغم والحركة والثقل
والدلالة .. وحاول وجرب لنفسك فى هذه العبارة البسيطة
ذات العشر كلمات أن تغير حرفا أو تستبدل كلمة بكلمة .
ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين
عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة .

ولم يكن مستغربا من جاهلى مثل الوليد بن المغيرة عاش
ومات على كفره أن يذهل ولا يستطيع أن يكتفم اعجابته بالقرآن
رغم كفره فيقول وقد اعتبره من كلام محمد :

« والله ان لقوله لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ،
وأن أسفله لمغدق .. وانه ليعلو ولا يعلى عليه » .
ولما طلبوا منه أن يسبه قال :

« قولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء
وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

انه السحر . حتى على لسان العدو الذي يبحث عن كلمة يسبه بها .

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول ، فالسبب هو التعود والالفة والمعاشة منذ الطفولة والبلادة والاغراق في عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا . . ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذي نسمعه من مرتلين محترفين يكرون السورة من أولها الى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة . نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح العبارات . . وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعنة دون أن ينبض شيء في قلبه . . ثم المناسبات الكثيرة التي يقرأ القرآن فيها روتينيا . . ثم الحياة العصرية التي تعددت فيها المشاغل ونوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وصدت الارواح .

ورغم هذا كله فان لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتد فيها طفلا بكرا وترتد له نفسه على شفافتها كقيلة بأن تعيد اليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والايقاع المطرب الجميل في القرآن . وكقيلة بأن توقفه مذهولا من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوها .

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة لا تجد لها مثيلا ولا بديلا في أية لغة :

« فلما تغشاها حملت حملا خفيفا »

(الأعراف - ١٨٩)

هذه الكلمة « تغشاها » . . تغشاها رجلها .

أن يمتزج الذكر والانثى كما يمتزج ظلان وكما يغطي الليل النهار وكما تدوب الالوان في بعضها البعض ، هذا اللفظ العجيب الذى يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة فى التعبير .

وألفاظ أخرى تقرؤها فى القرآن فتترك فى السمع رنيناً وأصداء وصورا حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول :

« والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس »

(التكويد - ١٧ - ١٨)

« عسعس » .. هذه الحروف الاربعة هى الليل مصورا بكل ما فيه . « والصبح اذا تنفس » ان ضوء الفجر هنا مرئى ومسموع .. انك تكاد تسمع سقسقة العصفور وصيحة الديك .

فاذا كانت الآيات هى نذير الغضب واعلان العقاب فانك تسمع الالفاظ تتفجر .. وترى المعمار القرآنى كله له جلجلة . اسمع ما يقول الله عن قوم عاد :

« وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية »

(الطه - ٦ - ٧)

ان الآيات كلها تصر فيها الرياح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الحاوى وصورة الارض الخراب . والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والالفاظ التى لها جرس وصوت وصورة .

ولهذه الاسباب مجتمعة كان القرآن كتابا لا يترجم . انه قرآن فى لغته .. أما فى اللغات الأخرى فهو شىء آخر

غير القرآن . . « انا أنزلناه قرآنا عربيا » وفي هذا تحديد
فأصل .

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل :

« الرحمن على العرش استوى »

(طه - ٥)

اننا لسنا أمام معنى فقط . . وانما نحن بالدرجة الاولى أمام
معمار . . أمام تكوين وبناء موسيقى تنبع فيه الموسيقى من
داخل الكلمات ، من قلبها لامن حواشيها ، من خصائص اللغة
العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها .

ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة . . انها تحدث
الحشوع في النفس بمجرد أن تلامس الاذن وقبل أن يتأمل
العقل معانيها . . لانها تركيب موسيقى يؤثر في الوجدان
والقلب لتوه ومن قبل أن يبدأ العقل في العمل .

فاذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فانه سوف يكتشف أشياء
جديدة وسوف يزداد خشوعا . . ولكنها مرحلة ثانية . . قد
تحدث وقد لا تحدث . . وقد تكشف لك الآية عن سرها وقد
لا تكشفه . . وقد تؤتي البصيرة التي تفسر بها معاني القرآن
وقد لا تؤتي هذه البصيرة . . ولكنك دائما خاشع لأن القرآن
يخاطبك أولا كمعمار فريد من الكلام . . بنيان . . فورم . .
طراز من الرصف يبهر القلب . . ألقاه عليك الذي خلق اللغة
ويعرف سرها ، وليس أبدا محمد النبي الأمي الذي كان يرتجف
كما ترتجف أنت والوحي يلقي عليه بالآية : « اقرأ باسم ربك
الذي خلق » فيرتجف ويتصبب عرقا ولا يعرف من أى سماوات
يلم به هذا الصوت الأمر . . وهو يلوذ بزوجته خديجة وهو
ما يزال يرتجف فرقا لما سمع وقد بات يخشى على نفسه الجنون
فتطمئنه خديجة بصوتها الحاني هامة :

« والله ما يخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم .. وتحمل
الكل .. وتكسب المعدوم .. وتقري الضيف ، وتعين على
نوائب الحق ، »

وينقطع عنه الوحي سنتين بعد هذه الكلمات القليلة الاولى .
ويتركه في حيرة .. يندرع دروب الصحراء الملتهبة يكاد يجن
من أمر هذا الصوت الذي نزل عليه ثم انقطع عنه .

ولو كان محمد مؤلفا لآلف في هاتين السنتين كتابا كاملا .

ولكنه لم يكن أكثر من مستمع أمين سمع كما تسمع انت
تلك الكلمات ذات الموسيقى العلوية في لحظة صفاء وجلال فذهل
كما تذهل وصعقت حواسه أمام هذا التركيب الفريد المضمين .

وبعد سنتين من الصمت عاد الصوت ليهتف في أذنه :

« يا أيها المدثر قم فأنذر »

(المدثر - ١ - ٢)

ثم بدأت آيات القرآن تنزل متواليه .

ولم يكن محمد من ادعياء المعجزات .

ويوم دفن ولده الوحيد ابراهيم حدث كسوف كلي للشمس
فسره الناس على أنه معجزة ومشاركة من الطبيعة لحزن محمد
فقال محمد كلمته المشهورة :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت
أحد ولا لحياته ، »

ولو كان في طبعه الادعاء لالتمس فيما حدث سببا للدعاية
لنفسه ، ولكنه كان الصادق الأمين من أول يوم في حياته الى
آخر يوم .

والوحي يلقي الى محمد بما لا يعلم محمد .

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم إذ
يلفون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ
يختصمون » •

(آل عمران - ٤٤)

« تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها انت
ولا قومك من قبل هذا فاصبر أن العاقبة للمتقين »

(هود - ٤٩)

وهو يلقي اليه بأسرار في التوراة والإنجيل •• ولم تكن
هذه الكتب قد ترجمت الى العربية في ذلك العصر البعيد (وَأول
نص مسيحي ترجم الى العربية هو مخطوط بمكتبة القديس
بيطرسبرج كتب حوالي عام ١٠٦٠ ميلادية) • كانت هذه
الكتب أسراراً عبرية لا يعرفها إلا أصحابها •

وهو يتحدى اليهود بأن يخرجوا مخطوطاتهم ويقرأوها :

« قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين »

(آل عمران - ٩٣)

ثم هو يصحح بعض تفاصيل التوراة •

ففي رواية التوراة لقصة يوسف يقول النص ان أخوة يوسف
استخدموا في سفرهم « الحمير » والقرآن يروي انهم استخدموا
« العير » وهي الابل •

والحمار حيوان حضرى عاجز عن أن يجتاز مسافات
صحراوية شاسعة لكي يجيىء من فلسطين الى مصر •• وحكاية
العير هي حكاية أدق وأصدق :

ألم يلعن أرميا : « أقلام النساخ الكاذبة » •

ان الوحي يلقي على محمد ما لا يعلمه محمد لا هو ولا أصحابه
ولا قومه ولا نساخ التوراة وحفاظها .. ثم هو يلقي عليه من
فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة والألغاز مثل .. كهيعص .
طسم .. حم .. عسق ، مما لم يقل لنا النبي انه يعلم له
تفسيرا .

ولو أن محمدا هو الذي وضع القرآن لبث فيه أشجانه
وحالاته النفسية وأزماته وأحزانه .. والقرآن غير هذا تماما .
فهو يبدو من البدء الى النهاية معزولا عن النفس المحمدية بما
فيها من مشاغل وهموم .. بل أن الآية لتنزل مناقضة للارادة
المحمدية :

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه »

(طه - ١١٤)

كل هذا يضع أمامنا القرآن كظاهرة متعالية معزولة عن
النفس التي أخبرتنا بها .. فهي لا أكثر من واسطة سمعت
فأخبرت .

أما القرآن ذاته فهو - لفظا ومعنى - من الله الذي أحاط
بكل شيء علما .

مخيرام مسير

القرآن معمار فريد .. نسيج وحده .. في الطريقة التي تصف بها الالفاظ في رصف خاص يفجر ما بداخلها من نغم ، وهو نغم لا ينبع من حواشى الكلمات وأوزانها وقوافيها وانما من باطنها بطريقة محيرة مبهولة تماما .. وبطريقة تؤدي الى خشوع المستمع وادراكه الغامض للمصدر الجليل الذي جاءت منه .

فنحن نصبح أسرى للقرآن بمجرد الاستماع اليه .. وقبل ان نتعقل كلماته ، فاذا بدأنا نتأمل ونتعقل ونحلل ونعكف على الكلمات فسوف تنفتح لنا كنوز من المعاني والمعارف والافكار تحتاج الى مجلدات لشرحها ، ولذلك سوف أكتفى بوقفات قليلة أمام بعض المشكلات الازلية .. كيف تناولها القرآن وماذا قال فيها .

وأولها مشكلة الحرية .

والحرية ثغرة كبيرة يدخل منها الشك ويتسلل منها هواة الجدل من الملحدين .. فأول ما يقوله الواحد منهم ليقيم الحجة على الدين كله أن يهتف محتجا .

« اذا كان الله قدر على أفعالي • فلماذا يحاسبيني ؟ » •
« واذا كان كل شيء يجري في الدنيا بمشيئة الله فما ذنبي ؟ »
والسؤال يطرح معضلة بالفعل •

وقد أوصى النبي أصحابه بعدم الدخول في جدل •
وقال لهم : اذا جاء ذكر القدر فأمسكوا •

لانه علم أن المعضلة من المعضلات الفلسفية العالية التي لا ييسر الرد عليها بعلوم عصره •• وان الجدل سوف ينزلق بهم الى مناهاة يضيعون فيها •• ولذا فضل الايمان بالقلب على الترثرة العقلية العقيمة •

وهي وصية لا تنسحب تماما على عصرنا ، الذي دخلت فيه الفلسفة الجامعات وأصبحت درسا ميسرا يتلقاه ابن العشرين كل يوم •

وبذلك أصبح السؤال مطروحا بشدة •• وفي حاجة الى جواب ورد شاف من الفلسفة ومن الدين ومن صميم القرآن ذاته •



ومن النظرة المبدئية للعالم بما فيه من أرض وسموات ونجوم وكواكب ترى انه يقوم على سلسلة محكمة من الاسباب والمسببات وان كل شيء فيه يجري بنظام محكم •• وان كان لديك ورقة وقلم فانك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب ، لانها تتحرك حسب قانون •• وكل شيء في الدنيا يتحرك حسب قانون •

الا الانسان •• فانه يشعر انه يمشي على كيفه •

الانسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ، ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه •• ويستحيل في أي لحظة أن تتنبأ بمصيره •

وحكاية الحتمية الداخلية التي تصور هافرويد فاعتبر الارادة بسببها حرة في الظاهر لكن مقيدة في الباطن وأسيرة لجبرية الغرائز وآلية الحوافز الباطنة . . عاد هو ذاته فنقضها فقال ان الغريزة هي خام غفل تتصرف فيه الارادة بالكبت أو بالاطلاق أو بالتسامي .

وهكذا عادت الغريزة لتصبح مجرد ظرف تتحكم فيه الارادة كما تتصرف الارادة في الظروف الخارجية وتتحكم فيها . . وأصبحت الارادة بهذا المعنى حقيقة متعالية متجاوزة للغرائز . وبالمثل حكاية الحتمية التطبيقية التي أثارها الماديون . . فاعتبروا كل انسان ابن طبقتة . . تحدد له طبقتة حوافزه النفسية وعواطفه ورغباته وشخصيته السلوكية . . فهو يتصرف كنبيل أو كاقطاعي أو كبروليتاري لا كفلان الفلاني . بل هو لا يكاد يملك نفسا فما يتخيل انه نفس مستقلة بداخله ، ماهي في الحقيقة الا مجموعة من الانماط السلوكية التي استعارها من طبقتة . . انها الحتمية التطبيقية تعمل من خلاله . وما هو الا وسيط تظهر من خلاله القوى الاجتماعية اللامعقولة في تصارعها .

وهي نظرة أوقعت الفكر المادي وعلم النفس الطبقي في أشد التناقض . . فكيف نفس سلوك رجل مثل بولستوى وهو من النبلاء الاقطاعيين بحكم الوراثة وهو مع ذلك لم يتصرف أبدا كنبيل ولا كاقطاعي بل تصرف كطليعة الفقراء والفلاحين محطما بذلك تلك الحتمية التي اسمها « علم النفس الطبقي » . وبالمثل باكونين وكروبتكين طليعة الفوضوية وكانا من كبار الاعيان . وماركس ذاته ابن الطبقة البورجوازية الذي انقلب على الطبقة البورجوازية .

وماذا نقول عن الفلاح الذي يهمل تنقية الدودة في مزرعة تعاونية . . والعامل الذي يهمل صيانة الاتوبيسات في قطاع عام .

ان هذه الحتمية التي تصورها علم النفس الطبقي هي كلام غير دقيق وغير علمي .

والحقيقة أن النفس الانسانية انفردت دون صنوف الوجود المادى ، بأنها تملك قدرة داخلية على التملص من الـ . . لا بد واللازم . . والضرورى . . والمحتوم . . وان الارادة الانسانية لها حريتها فى أن تحل باى تعاقد . . ويستحيل التنبؤ بما يجرى فى منطقة الضمير . . لانها منطقة حرة بالفعل .
لا شىء يحول بين الانسان وبين أن يضمر شيئا فى نفسه .
انه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصيه احلامه .

ولكن هذه الحرية البكر التطبيقية فى الداخل ما تلبث ان تصطدم بالعالم حينما تحتك به لاول مرة فى لحظة الفعل .
ان رغبتنا تظل حرة مادامت كامنة فى الضمير والنية . . فاذا بدأنا التنفيذ اصطدمنا بالقيود . . وأول قيد تصطدم به هو جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكته الجبس ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهربا من تلبية هذه المطالب . . فنجرى خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حریتنا . . بعضها وليس كلها . . وهو ثمن ضرورى .
فرغباتنا لا تستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد ، وجسدنا هو أداة حریتنا كما أنه القيد عليها . وليس جسدنا وحده بل أجساد الآخرين أيضا أدواتنا ، فنحن ننتفع بما يصنعه العامل وما يزرعه الفلاح وما يخترعه المخترع وما يكتبه الكاتب وكل هذه ثمار أجساد الآخرين وحریاتهم .

ان المجتمع أداة هائلة موضوعة فى خدمتنا بما فيه من بريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف .
وحينما يركب أحدنا قطارا فانه يركب فى نفس الوقت على حرية جاهزة أعدها له آلاف العمال والمهندسين والمخترعين وهو يدفع فى مقابل هذا الكسب ضريبة من حریته .

وليس المجتمع وحده هو الذي يتقاضاه ضرائب ولكن الكون كله . . جاذبية الارض وضغط الهواء ومياه المحيطات والسماء بكواكبها . . كلها تحاصره وتحاصر حرите وتطالبه بنوع من الوفاق معها .

وهو بالوفاق يربح حرته دائما .

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد .
فهو حينما يفتن الى اتجاه الريح ويضع شراعه في مواجهتها يمتطى الريح ويسخرها لخدمته . . وحينما يفتن الى ان الحشب أخف من الماء ، ويصنع مركبا من الحشب يمتطى الماء . . وبالمثل حينما يفتن الى نفع الناس ويسير في اتجاههم يكسب الناس ويكسب معونتهم .

ان الانسان يعيش مضطربا بين عالمين . . عالم ارادته الحرة بداخله . . وعالم المادة حوله الراسف المغلول في القوانين .
وسبيله الوحيد الى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفتنة الى استغلالها بالوفاق معها . . وهو دائما امر ممكن .

ولهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات والظروف الخارجية بل ان هذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن نكشف حریتنا عن مدلولها في الخارج الا بوجود عقبات تزحزحها وتتغلب عليها . . انها تكشف عن مدلولها من خلال صراع . . وبدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى .

والضوابط الخلقية والقوانين الاجتماعية لا تنفي الحرية وانما هي أشبه بعلامات المرور . . وضعت لتنظم المرور وتفسح أكبر حرية لكل .

وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حریتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبدا لفریتك .
أما حرية القمار والسكر والعريضة والمخدرات والتبذل الجنسي فهي ليست حريات وانما درجات من الانتحار واهدار الحياة وبالتالي اهدار الحرية .

وكل اختيار ضد الحياة لا يكون اختيارا .
وكل اختيار ضد القانون الطبيعي ليس اختيارا وانما اهدار
للاختيار وكلنا نعلم اننا اذا اردنا أن نزداد حرية ونحن نسبح
اخترنا السباحة مع التيار وليس ضده .

نخلص من هذا الى أن حرية الانسان حقيقة برغم ما يقوم
حولها من حدود ومقاومات . . وان الانسان حر حرية مطلقة
في منطقة ضميره فهو يستطيع أن يضرر ما يشاء . . وحر
حرية نسبية في التنفيذ ، في منطقة الفعل والعمل . . بحسب
ما يقوم حوله من حدود ومقاومات .

ويبقى بعد ذلك اللفز الأزلي في علاقة الانسان بالله . وعلاقة
حرية الانسان بالارادة الالهية المطلقة .

وهنا يجيء دور القرآن ليلقى كلمات كالومض الخاطف
يعطى بها مفاتيح هذا الاشكال الأزلي .

ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة فانه يكتفى
بالومض والرمز والاشارة واللمحة .

فيقرر أولا أن حرية الانسان كانت بمشيئة الله ورغبته
ومراده . . وان مايجرى من حرية الانسان لايجرى اكرها
لخالق ولا اكرها للمخلوق ، وانما بهذا قضت المشيئة .

ويقول القرآن في وضوح :

« ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا افانت
تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

(يونس - ٩٩)

لقد رفض الله أن يكره الناس على الايمان وكان هذا في
امكانه ولكنه اراد للانسان أن يكون حرا مختارا ، يختار
الايمان أو الكفر كما يشاء ؛

« **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** »

(الكهف - ٢٩)

« **لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** »

(البقرة - ٢٥٦)

« **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** »

(السجدة - ١٣)

« **وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى** »

(فصلت - ١٧)

ان الله يتركنا ولو اخترنا العمى على الهدى .. وقد سبقنا
بهذا مشيئته .

بل فعل بنا أكثر من هذا ، فخيرنا حتى في أن نختار ..
عرض علينا هذه الامانة (وهي الحرية والمسئولية) عرضها
لنقبلها أو نرفضها كما نشاء وهي الامانة التي رفضتها الجبال
فحمل الانسان الامانة التي رفضتها الجبال . وكان بنفسه
جهولا ظلوما :

« **انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال
فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان
ظلوما جهولا** »

(الاحزاب - ٧٢)

لقد جهل الانسان تبعة هذه الامانة وأهوالها ومهالك الغرور
التي سوف يتعرض لها بحملها .. وكيف أنه سيظلم بها
نفسه وغيره .. ولكن الله كان يعلم بهذه المحنة الهائلة .. وكان
يعلم أن هذه المحنة سوف تزكى الانسان وتطهره وتربيته :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ،
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى اعلم ما لا تعلمون »

(البقرة - ٣٠)

ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الانسان بأن يكون حراً
أو لا يكون ، ولا متى تم هذا العرض . . هل حدث فى مبدأ
الخلق مع آدم . . أم مع الارواح قبل نزولها الى الارحام . فهذا
غيب مطلق .

والقرآن يكتفى بأن يعطى ومضة ، ولمحة .
وبهذه الحرية التى قبلها الانسان مختاراً حقت عليه
المسئولية والمحاسبة وأشار القرآن لهذا فى آيات حاسمة
قاطعة :

« كل نفس بما كسبت رهينة »

(المدثر - ٣٨)

« كل امرئ بما كسب رهين »

(الطور - ٢١)

« وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه »

(الاسراء - ١٣)

« قل لا تسألون عما اجرنا ولا نسأل عما تعملون »

(سبأ - ٢٥)

« ولا تزر وازرة وزر اخرى »

(الاسراء - ١٥)

لا يستطيع أحد أن يفتدى آخر أو يحمل عنه ذنبه وانما
لكل عمله وعلى كل وزره .

وبمقتضى هذه الحرية جعل الله من « ضمير الانسان ونيته وسريته » منطقة محرمة وقدس أقدس .. لا يدخلها قهر أو جبر .. وقطع على نفسه عهدا بأن تكون هذه المنطقة حراما لا يدخلها جنده .

فالمبادرة بالنية حرة تماما .

وكل منا له أن يضمّر وينوى ويسرّ في سريته ما يشاء وإنما يبدأ التدخل الالهي لحظة خروج النية الى حيز الفعل .. فيعطى الله لكل انسان تيسيرات من جنس نيته ومن جنس ضميره وقلبه .. وهو عين العدل .. ليكون الفعل بعد هذا معبرا عن دخيلة فاعله :

« فأما من أعطى واتقى وصالق بالحسنى فسنيسره
لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى »

(الليل من ٥ الى ١٠)

ها هنا وعد آخر من الله بأن يجعل تيسيرات الافعال مطابقة لدخائل القلوب فيجد الشرير تيسيرات الشر ، ويجد الخير تيسيرات الخير .. ومن يعلم الله فيه الهدى يهديه ، ومن يعلم فيه الضلال يتركه للشياطين تضله .

« فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا »

(الفتح - ١٨)

وفي آيات أخرى تراه يقول :

« ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم »

(الأنفال - ٢٣)

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »

(الصف - ٥)

ولأن الله علم بكل شيء مسبقا .. وأحاط بكل شيء علما ..
نراه يتكلم في القرآن عن من :

« حق عليهم القول »

(فصلت - ٢٥)

و « الذين سبقتم لهم منا الحسنی »

(الأنبياء - ١٠١)

و « من حقت عليه الضلالة »

(النحل - ٢٦)

« حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »

(السجدة - ١٣)

فقد علم مسبقا وسلفا بأن الانسان سيفسد في الارض
وسيسفك الدم ويظلم نفسه ويظلم الآخرين .. ويستحق
بذلك درجات متفاوتة من العقوبة .

كل هذا كان في سابق علمه .

وليس هذا بالجبر ولا بالحتم .. ولكن .. كما يحدث ان
توسم في أحد أبنائك حب العلم والتحصيل فتمده بالتسهيلات
والتيسيرات وتبعته الى الخارج في بعثة .. وترى في الآخر
العكوف على الفساد وصحبة السوء فتكتفى بما له من حظ
محدود من التعليم في بلده .. ولو فعلت عكس ذلك لكنت
ظالما .. ولاكرهت أبنائك على غير طبائعهم .

كما أن هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر اكراه

ولا جبر .. انما هو مجرد سبق علم .. فأنت تعلم مسبقا
من أخلاق ولدك بأنه سوف ينصرف الى اللعب ويهمل كتبه ..
فاذا انصرف الى اللعب بالفعل وأهمل كتبه فان ذلك لا يكون
اكراها منك ولا جبرا ولا عنوة وانما لأن هذه طبيعته التي
سبق علمك اليها .. وانما تأتي التجربة فتكشف له نفسه ..
وبذلك يحق عليه العقاب صدقا وعدلا .. فقد علم من نفسه
ما لم يكن يعلم .

« علمت نفس ما قدمت وأخرت »

(الانظلو - ٥)

ولهذا جاءت الدنيا لتكون حقل تجربة واختبارا لمعادن
النفوس .

« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »

(الملك - ٢)

وحتى لا تكون لاحد أعذار في أفعاله فيقول لحظة الحساب
فعلت كذا وكذا تحت تأثير العرف والتقاليد والبيئة والمجتمع
والتربية .. الخ .. الخ .. حسم الله الموضوع فقال في
القرآن :

« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم
بما كسبت قلوبكم »

(البقرة - ٢٢٥)

وفي آية ثانية :

« وليس عليكم جناح فيما أخطاتم به ولكن ما تعمدت
قلوبكم »

(الأحزاب - ٥)

وفى آية ثالثة يحدثنا عن الذين ارتدوا الى الكفر بعد ايمانهم ويهددهم بأشد العذاب ثم يستثنى قائلاً :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان »

(النحل - ١٠٦)

أى من كفر بلسانه تحت تأثير التعذيب وظل قلبه مؤمناً .
ان ما يدور فى القلب هو موضوع المحاسبة بالدرجة الاولى
وليس ما يجرى على مسرح الفعل .

« يوم تبلى السرائر »

(الطارق - ٩)

ان السريرة هى محل الابتلاء ومحل المحاسبة .
والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة
والتربية كما أسلفنا فى شرحنا المسهب . . . فهى المبادرة
المطلقة . . . والابتداء المطلق الذى أعتقه الله من كل القيود .
انها روحك ذاتها وهى الكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف
بصمة اصبعك عن فرديتك .
وروحك فيها من حرية الله لأنها نعمة منه :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »

(الحجر - ٢٩)

ولان فيك ذلك القبس من الله ولانه كرمك بحرية الارادة
فانت محاسب على هذه الحرية ، وهذا منتهى العطاء الالهى
ومنتهى العدل أيضاً .
ومن هنا يأتى المزج بين الروح وبين الله فى آيات عميقة
الدلالة :

« وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »

(الانفال - ١٧)

يأتيك النصر بيدك وبيد الله في ذات الوقت فتكون يدك لحظة الانتصار هي يد الله ورمىك رميته ومشيتك مشيئته •
ومن هنا قد يعترض معترض •• فيقول :
فلماذا لا تكون النية هي الاخرى مقدره ؟
والجواب على ذلك يأتي من صميم القرآن :
« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »

(البقرة - ١٠)

« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »

(غافر - ٣٤)

« والذين اهلوا زادهم هلى »

(محمد - ١٧)

« فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم »

(الصف - ٥)

« ساءصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق »

(الاعراف - ١٤٦)

ومن هذا يتبين أن الله يترك المبادرة بالنية دائما لك ثم بعد ذلك يأتي قضاؤه فيزيدك مرضا اذا أضمرت المرض في قلبك ويهديك اذا بادرت فى سريرتك بميل الى هدى •• ويصرفك عن الهدى اذا أضمرت الكبر •

ان منطقة الضمير متروكة دائما لك لتبادر بما تشاء ••
وبعد ذلك ينزل عليك القضاء ويحق عليك القول •
والله لا يمكن أن يفرض عليك نية بالسوء أو بالظلم •

« ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لاتعلمون »

(الاعراف - ٢٨)

وهذا يدل على أن قانون الخلق الاول هو أن تكون الروح محرّابا وقدس أقدس لا يدخلها قهر . . ولا يكرهها الله على شيء لا هو ولا جنده ولا أنبياءه ولا أوليائه .
انها « السر الاعظم » الذي لا يعلم به الا الله يوم تبلى السرائر .

وفى هذا بقول حديث نبوى شريف عن ابي بكر :
« لا يفضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بسر وقر فى قلبه » .
ويقول الله فى قرآنه :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم »

(البقرة - ١٠٩)

لم يخلق الله الحسد فى قلوبهم ولم يودعه ضمائرهم ، ولكنهم يحسدونكم اختيارا من عند أنفسهم . . والعبارة هنا صريحة (من عند أنفسهم) . . وهى تنفى التدخل الالهى وتقطع بوجود هذه المنطقة الداخلية التى تركها الله حرة .
ويقول الله تعالى مخاطبا الشيطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين »

(العبر - ٤٢)

ان الشيطان لا يستطيع ان يدخل قلبك الا اذا فتحت له الباب اختيارا وكنت من الغاوين ، ولكنه لا يستطيع ان يقتحم عليك قلبك جبرا وفسرا .

ان الله قد كفل لهذا القلب الحماية ولم يجعل لأحد من جنده الشر أو الخير سلطانا قاهرا عليه الا اذا أراد صاحب هذا

القلب اختيارا ان يستضيف ويدعو ويحتضن دواعى الشر
اودواعى الخير فحينئذ يكون له ما اراد .

نحن امام قدس اقدس بالفعل . . وحرمة محرم تقوم عليه
الاسوار ولا يدخله حتم ولا جبر ولا اكراه .

وما يحدث لنا من اكراه بالفعل فى عالم الواقع لا يمكن ان
يصل الى داخل ضمائرنا .

يمكنك ان تجبرنى بالقوة على ان ارفع يدي او اقف مرغما
او اهتمف باسمك ، ولكن لا يمكن ابدا ان تجبرنى على ان
أحبك .

ولهذا لا تعطينا الاديان رخصة لنقول يوم الحساب ان
فلانا اغراني او فلانا اجبرنى ، او فلانا اكرهنى املا فى ان
يلقى الواحد ذنبه على الآخر فقد جعل الله من اعماق الضمير
والسريرة منطقة حراما لا يستطيع ان يدخلها جبار بجبروته .

يمكن ان تكره خادمك على فعل . ولكنك لا تستطيع ان
تكرهه على ان يضمر شيئا فى سريرة قلبه .

والقرآن يعتبرك حراما مستثولا مهما احاطت بك ظروف
الاستبداد فيقول اشارة الى امثال هذه الظروف :

« ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها »

(النساء - ٩٧)

لا أعذار .

حينما تقضى اللحظة ان تختار فانت تختار نفسك بالفعل .

« انا هديناه السبيل اما شاكرنا واما كفورا »

(الانسان - ٣)

وفى لفظ « اما » يبدو عنصر الاختيار واضحا محددًا .

« ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها »

أى فتح أمامها سبيل الخير والشر وتركها أمام الطريقين لتختار . . . ولهذا قال فجورها وتقواها ، ولم يقل أو تقواها لأنه فتح الطريقين معا ليجعل للنفس الاختيار ولم يجبرها على أحد الطريقين . . . ولذلك أردف موضحا : « قد أفلح من تركها وقد خاب من دساها » ، فرد الفلاح والحيلة للنفس المخيرة ، وفي آية أخرى يوضح الامر أكثر فيقول

« وهديناه النجدين »

(البلد - ١٠)

- أى هديناه الى مفترق طريقين يختار أيهما .
- ان النية حرة .
- والسريرة حرة في اضمارها لما تشاء .
- أما الفعل فهو حر ومقدور في ذات الوقت .
- وكل واحد منا له نصيبه من حرية الفعل . . . والذي يقول بالجبرية سوف يقع في مأزق حينما نسأله كيف يميز بين يده يحركها في حرية ويكتب بها ما يشاء . . . وبين يده وهي أسيرة نرتعش قهرا في رجفة الحمى . . . هنا أمامنا حالتان واضحتان ، حرية في حالة الصحة ، وجبرية في حالة المرض ، ولو كانت الجبرية التي يقول بها صحيحة لما أمكن أن يميز بداهة بين الحالين . . . ولما أمكن أن تقوم الحالتان أصلا .
- ان حرية الفعل اذن حقيقة . . . والقدر أيضا حقيقة .
- والمشكلة هي أن نحاول أن نفهم هذا الازدواج وكيف لا يلغى الواحد منه الآخر . . . كيف لا يلغى القدر الحرية . . . وكيف لا تلغى الحرية القدر .
- وهذا أمر نستشفه من الآيات استشفافا . . . فهي تلمح ولا تصرح ، حتى لا تلقى بالناس في بلبلة .
- يقول الله في كتابه :

« ان نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »

(الشعراء - ٤)

لو شاء لفعل ولكنه لم يفعل . . لأنه لم يشأ أن يقهرنا على ايمان فتنطفى بذلك حرية الاختيار التي جعل منها جوهر وجودنا . . فقد أراد لنا أن نكون أحرارا نؤمن أو نكفر . ولم يجعل الله ابليس ابليسا .

وانما ابليس اختار لنفسه الكبرياء والجبروت والتعظيم حينما رفض أن يكون في خدمة آدم مثل بقية الملائكة وقال :

« أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »

(ص - ٧٦)

اختار ابليس لنفسه الغرور بغير علم ولا حق . فاختره الله ليغرر بالناس وقضى عليه قضاء من جنس ضميره . وبالمثل أبصر النقاء والطهر في قلب محمد فاختره نبيا للهداية :

« والذين جاهلوا فينا لنهدينهم سبلنا »

(العنكبوت - ٦٩)

ولهذا السبب أيضا . لعدم القهر والجبر . أخفى الله نفسه في الانجيل وأخفى نفسه في القرآن لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الايمان قهرا . فجعل من انشوراة والانجيل والقرآن كتبا يمكن أن نؤمن بها ويمكن أن نشك فيها . وقال عن قرآنه :

« يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا »

(البقرة - ٢٦)

وضمن آياته ابراهيم ولكنه لم يجعلها أبدا براهين ملزمة

أأخذ بالخناق وتقهقر العقل . . وانما تركك دائما لترجع شيئا
على شيء حرصا منه على حريرتك . . ولتقول ما تريد بدون
مؤثرات كاذبة . . فتفصح عن دخيلتك وسريرتك ويحق عليك
القول .

لقد أأرادك أن تكون من أحد الأوجه خليفة صغيرا له على
الأرض تحكم وتقضى في شئونك وشئون الآخرين . . ليتمتحنك
ويختبرك .

وفي آية نموذجية يشرح القرآن ما بين القدر الإلهي والحرية
الفردية من تلاقق ويرفع ما بينهما من تناقض . . حينما يروى
ما حدث من تكاسل المناققين عن نصره الرسول وعدم الخروج
بعه في غزواته :

**« ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله
انبعاثهم فببطهم وقيل أقعدوا مع القاعدتين لو
خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضحوا خلالكم
يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين،
(التوبة - ٤٦ - ٤٧)**

ها هنا منافقون بالقلب لا يريدون بالنية أن ينصروا نبينهم
فيقضى عليهم الله بمثل نيتهم فلا يريد لهم كما لم يريدوا
لأنفسهم ويشبطهم ويكره لهم الخروج كما كرهوه لأنفسهم .
ها هنا يبدو كيف تماثل أمر الله واختيار الإنسان وانتفى
التناقض . . فلم يكن التناقض إلا في وهما نتيجة عدم الفهم .
وأصبح من السهل علينا أن نفهم آيتين متناقضتين في
الظاهر مثل :

« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

(الكهف - ٢٩)

« وما تشاؤون إلا أن يشاء الله »

(الأنسلا - ٢٠)

ففى الآيه الاولى بصف الله ارادة الانسان الحرة .

- وفى الآيه الثانية يتكلم عن ارادته الالهية وهى القدر .
- وما بين الاثنين من تناقض هو تناقض فى الظاهر فقط .
- فقد فهمنا أن الله يريد للانسان ما يريد الانسان لنفسه :
- « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

(الرعد - ١١)

وهو يقدم للانسان من التيسيرات ما يماثل ضميره وقلبه .
وبالتقاء الاثنين .• الحرية والقدر .•• ينفذ القضاء ويتم الفعل
بارادة الله ومشيتته وفى نفس الوقت باختيار الانسان وحريته
بلا تناقض « قل كل من عند الله »

فأنت تشاء ولكن قدرتك على أن تشاء وتختار هى منحة من
الله ومشيتة عليا .•• حريتك ذاتها منحة وعطية ومشيتة
الهيبة .•• ومن هنا كانت الآيه .•• وما تشاؤون الا أن يشاء
الله .•• هى تقرير للحقيقة .•• وليست كلاما متناقضا .•• فهى
تقرر أنك حر ولكن حريتك منحة وعطية وهبة ومشيتة من
المعطى .

ثم تاتى الآيه القرآنية الحاسمة فتختم الموضوع :

« **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه
تحشرون** »

(الانفال - ٢٤)

ومعنى هذا أن الله يدع القلب حرا فتكون لكل انسان سريرة
هو حر فيها .• ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه .•

فهو يحول بين المرء وقلبه بالتمكين والاحباط لظفا ورحمة

ليقى أحبائه السيئات .. وليقدم التيسيرات لكل حسب
ضميره ونيته ومبادراته .. اما ليسرى واما للعسرى .

ثم تكون الرجعة فى النهاية اليه يوم القيامة فيحاسب كل
انسان على وفق سريره .. فقد كان كل منا حرا فى سريره
وهو عنها مسئول .

بهذه الكلمات التى تضىء كالومض الخفى يعطى القرآن
المفتاح لأكبر المشكلات استعصاء فى الفلسفة .. مشكلة الجبر
والاختيار .

قصة الخلق

مبدأ الخليقة وكيف كان .. وميلاد الارض والقمر والشمس
والنجوم ، وكيف حدث .. وكيف خطا على الارض أول انسان
ومن أين جاء ؟

كل هذه أمور خاضت فيها العلوم وكانت لها في شأنها
نظريات وشواهد وبراهين .

علوم البيولوجي والانثروبولوجي والفلك والكيمياء العضوية
والجيولوجيا والتطور الذي أصبح الآن علما قائما بذاته ..
وعلم الاجنة .. وعلم التشريح .. مجلدات ومجلدات ..

وكلام كثير لا يمكن أن نكون بمعزل عنه ونحن نقرأ ما يقوله
القرآن عن قصة الخلق .. فما قام الدين أبدا منعزلا عن الحياة
ولا قام ليعادي العلم بل انه قام ليقدم لنا منتهى العلم ..
وليقودنا الى اليقين في مقابل الشك والاحتمال والترجيح ..
جاء ليقول كلمة أخيرة .. فلا يمكن أن نخوض فيه دون أن
نخوض في كل شيء .. ودون أن نثير القضية كاملة برمتها
علما ودينا وفلسفة وسياسة .

وهذا يردني الى كتابين كتبتهما وقدمت فيهما الاشكال
جملة وتفصيلا هما .. لغز الموت .. ولغز الحياة ، ولا يمكن

أن أعود فأكرر ما قلته فيهما . . ولذا سأكتفى بسطور أعود
فأثيرها حتى لا يضيع منا السياق وحتى أربط معى القارىء
فى الفكرة الكلية .

أعود الى الحياة . . والى مبدئها . والتقط دارون . أبا التطور
ليروى لنا رؤيته عن مسيرة الحياة ، وهى الرؤية التى غيرت
فكر الدنيا .



فى رحلة حول العالم فى الباخرة « بيجل » مضى دارون
يجمع العينات من البر والبحر ومن تحت الماء ومن فوق الماء
ويدرس ويتأمل ويدون ويجمع ملاحظاته عن الاحياء فى كافة
أرجاء الارض .

ولاحظ داروين عدة ملاحظات :

– ان الحياة تتلون وتتكيف وتغير من تكوينها لتتلاءم مع
بيئتها على الدوام .

– الانسان فى المناطق القطبية ، سمين مكتنز بالدهن تماما
مثل الحوت ليمقى نفسه غائلة البرد . . والديبه مغطاة بالمثل
بمعاطف من الفراء . بينما هو فى المناطق الاستوائية الحارة
نحيل هزيل أسود ، وكانما اخترع لجلده مظلة لتقيه
الشمس .

– سحالى الكهوف التى تعيش فى الظلام لا وظيفة عندها
للبصر ، ولا للألوان . . ولهذا فهى عمياء وبلا لون . . بينما
سحالى البرارى حادة البصر وملونة .

– أفواه الحيوانات اختلفت وتباينت حسب وظائفها : فم
مزود بأسنان خنجرية تقطع وتمزق مثل النمر ، وفم مزود
بمنقار يلتقط مثل الطير وفم مزود بخطاف يتشبث كما فى
دودة الانكلستوما التى تمسك بجدار الامعاء . . وفم مزود
بخرطوم يمص كما فى الذبابة . . وفم مزود بابرة تحقن كما

في البعوضة . . . وفم مزود بمناشير وطواحين تطحن وتقرض
كما في الحشرات القارضة .

هل الحكاية أن الحيوانات أصلها واحد . . . ثم تطور هذا
الأصل وتباين واختلف إلى هذه الفصائل المتباينة بسبب
تباين الظروف والبيئات . . . الحيوانات التي دبت على الأرض
طورت لنفسها أرجلا . . . والتي نزلت إلى البحر تحولت فيها
الأرجل إلى زعانف ، والتي طارت في الجو تحولت فيها الأطراف
إلى أجنحة .

إذا كان هذا الاستنتاج صحيحا ، فلا بد أن يكشف لنا
التشريح تشابها في بنية الجميع .

وهذا هو ما قاله المشروط بالفعل .

ففي الثعبان الذي بلا أرجل يكشف التشريح عن أرجل
ضامرة مختفية في هيكله العظمي .

والطيور التي تبدو وكان لها زوجا واحدا من الأطراف
يكشف التشريح أن أجنحتها هي الزوج الثاني من الأطراف
تحور ليلائم وظيفته الجديدة .

الأسماك التي تدب على الأرض وتتنفس برئات يكشف
التشريح عن أن رئاتها هي نفس كيس العوم تحور ليلائم
وظيفة التنفس الجديدة .

زعانف السمك الأربع هي نفس الأطراف الأربعة متحورة
إلى ما يشبه المجاديف .

عدد أصابع اليد والقدم فينا خمس وفي القرود خمس وفي
الفيران خمس وفي السحالي خمس ، حتى الوطاويط لها خمس
أصابع ضامرة .

القلب والدورة الدموية تسير على خطة واحدة في الحوت
كما في الفأر ، كما في القرود كما في الإنسان كما في الوطاويط .
نفس الشرايين لها نظائرها في كل نوع ، والقلب هو دائما
نفس القلب بغرفة الأربع .

والجهاز العصبى الذى يتألف من مخ وجبل شوكى وأعصاب حس ، وأعصاب حركة ، هو نفس الجهاز العصبى فى الكلى .

والجهاز العضلى بعضلاته والهيكل العظمى بعظامه عظيمة عظمة .. كل عظمة لها نظيرها مع اختلافات طفيفة فى الشكل لتلائم الوظيفة فى كل حيوان .

والجهاز التناسلى نفس الخصية والمبيض وقنوات الخصية والمبيض والرحم فى كل حيوان .

وفترة الحمل عندنا تسعة أشهر ، وفى القروود العليا تسعة أشهر وفى الحيتان تسعة أشهر .. حتى فترة الرضاعة فى الجميع سنتان .

ثم خبئة أخرى : يكشف التشريح فى الهيكل العظمى للإنسان نفس فقرات الذيل التى فى القروود ، وقد تدامجت والتحمت لانعدام وظائفها .. حتى عضلات الذيل قد تحورت الى قاع متين للحوض .

وفقرات الرقبة فى الإنسان عددها سبع وفى الزرافة برغم طول رقبتها أيضا سبع وفى القنفذ سبع .

وخبئة ثالثة : يمر الجنين فى رحم أمه وهو يتخلق على مراحل فى مرحلة يكون أشبه بسمكة وتكون له خياشيم .. وفى مرحلة أخرى ينمو له ذيل ثم يضم .. وفى مرحلة ثالثة يتغطى بالشعر تماما كالقرد ثم يبدأ الشعر ينحسر عن جسمه تاركا مساحة صغيرة عند الرأس .

لقد فضح الجنين القصة .. وكشف لنا أصلنا الذى انحدرنا منه .

والشرط وهو يعبث خلف الاذن البشرية اكتشف شبيهاً آخر . فهامى ذى نفس عضلات الاذن التى كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير وقد تليفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة .. وحينما اتخذت آذاننا أشكالاً تغنيها عن الحركة .

ثم هاهى دى الحفريات تكشف عن حماجم بشرية ذات شكل
قردى فى الترنسفال وبكين وجاوة ونياندرتال وبعض هذه
الجماجم وجدت فى كهوف عثر بها على بقايا خشب متفحم فى
مواقد تدل على أن أصحاب هذه الجماجم قد اكتشفوا النار
واستخدموها منذ ملايين السنين .

لم يبق الا أن يكتب دارون نظريته فى أصل الانواع .

بل ان النظرية لتكتب نفسها فتقول ان الانواع انحدرت
كلها من أصل واحد واحد تبليين واختلف الى شجرة من الفصائل
والانواع نتيجة تباين الظروف والبيئات .

وابتكر دارون لنفسه تفسيراً . . فقال ان الترقى حدث
بحوافز داخلية وبدون يد هادية من خارج .

مجرد صراع البقاء كان الغربال .

كان التزاوج يلقي بتصانيف وتوالييف . التوالييف
التي خرجت الى الحياة بأرجل مبططة كانت أصلح للعوام
واستطاعت أن تستمر فى الحياة المائية والحيوانات المائية
الآخري التي حافظت على التصنيف القديم للارجل البرية ماتت .
وهكذا عاش الأصلح ومات الأقل صلاحية . . وحدث الترقى
الذى نراه تلقائياً بمجرد الحوافز الحياتية المادية .

وقامت الزوبعة على دارون .

ومضت سنين وسنين من التمحيص وإعادة النظر . . وعاش
من نظرية دارون بعضها ومات بعضها .

حكاية أن الانواع انحدرت من أصل واحد وانها تباينت الى
شجرة من الفصائل والانواع نتيجة تباين الظروف والبيئات
كانت احتمالاً مرجحاً أقرب الى الصحة تقوم عليه الشواهد .
فالوشيجة العائلية تربط كل الخلائق بالفعل . . والتشريح
يقول أنها تربط ببعضها البعض بصلة رحم وقربى .

أما حكاية ان الترقى حدث بالحوافز الحياتية وحدها وبدون يد هادية فلم تعد مقنعة .. وسقطت من غربال الفكر المدقق المحقق .

فلماذا يخرج من عائلة الحمار شيء كالحصان مع ان الحمار أكثر جلدا واحتمالا .. وبأى حوافز يتطور من عائلة الوعل شيء كالغزال وهو أرحف وأضعف وأقل جلدا من الوعل .. وبالمثل الفراش الملون الرقيق أبطأ وأضعف وأقل قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل .. والحمام واليمام والطواويس والعصافير الملونة أكثر رهافة وتهافتا من الصقور والحدادي والنسور .

ونشوء هذه الانواع لا يمكن ان يفسره قانون بقاء الاصلح وانما قانون آخر هو بقاء الاجمل .
اجمل في عين من ؟

يقول المعلق الخبيث .. اجمل في عين بعضها البعض .. الذكر فيها يختار الانثى الاجمل .. انه انتقاء جنسى . اننا مازلنا امام الحوافز الحياتية المادية .
وهو قول مردود عليه .

فلماذا يختار الذكر الانثى الاجمل ؟ ان القضية مازالت تطرح نفسها .. ان الجناح المنقوش ليس اصليح للطيران من الجناح السادة .. لا توجد مصلحة حياتية هنا .. وانما هنا قيمة جمالية عليا تفرض نفسها على جميع الحوافز .. هنا عقل الخالق المبدع الذي يجعل مخلوقاته .. نلمس آثاره في ورق الشجر والوان الزهر وأجنحة الفراش وريش الطواويس .

كما نقف مذهولين امام بعض الاشجار الصحراوية اذ نجد ان الطبيعة خصتها ببذور مجنحة لتطير محلقة تقطع أميال الصحارى الجرد لتجد فرصها القليلة في الماء .. أو تتأمل بيض البعوض فنكتشف انه يملك آلياسا هوائيه للطفو ، ليصوم في الماء ولا يغرق . كل هذا لا يفسره الا عقل كل فيكر ويهندس

لمخلوقاته فلا أشجار الصحارى تعقل لتزود بذورها بأجنحة ولا
البعوض يعرف قوائين أرشميدس في العفو ليزود بيضه
بوسيلة للعوام .

هذه أمور تعجز أمامها نظرية داروين تماما ولا يفسرها الا
عقلى كلى شامل يهندس الوجود ويصممه تصميما وينشئه
انشاء .

ولنشرح هذا الكلام أكثر سوف نتصور حكاية خيالية
افتراضية .. سوف نتصور أننا نعاني نقصا خاصا في حاسة
البصر .. وهو نقص يجعلنا نرى الآلات المختلفة دون أن نرى
صانعها .. وهكذا سوف نرى عربة اليد والعربة الكارو
والعربة الحنطور والسيارة والقطار والديزل دون أن نرى
الانسان .. وسوف نقول أن هذه أشياء تطورت من بعضها
البعض على سلسلة من المراحل ، وسوف ندلل على ذلك بما
بينها من تشابه تشريحي . فكل هذه الكائنات تتشابه في أنها
من مادة الحديد والخشب والجلد وتتركب من جسم وعجلات .
وبين السيارة والديزل والقطار سوف نرى أن هناك موتور
يتألف من سلندر وبستم ، مرة يشتغل بالبنزين ومرة بالبخار
ومرة بزيت الديزل .

ولأننا لا نرى الصانع الذى صنعها جميعا فسنقول أنها
تطورت بعوامل داخلية فيها .. نتيجة صراعها مع البيئة وبقاء
الأصلح بعد معارك البقاء الطويلة .

وسوف ننكر العامل الخارجى لاننا لا نراه .

فنحن نرى أنها تتحرك بمحرك داخلى فيها .

وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه دارون في نظريته عن النشوء
والارتقاء حينما قال ان عوامل التطور هي عوامل داخلية وان
الحياة تتقدم بحوافز باطنة دون يد هادية ترشدنا .. تتقدم
بفضل الآليات المادية داخلها .. لمجرد أنه لا يرى يد الصانع
المخالق المصور وهي تهندس وتخلق .

نحن اذن امام نظرية اكتشفت الوشائج العائلية بين أسرة
الاحياء من نبات وحيوان وانسان ولكنها لم تستطع أن تفسر
لنا كيف حدث الترقى بينها .

فاذا انتقلنا الى كلام العلم عن مبدأ الحياة . . فنحن امام
اجماع بأن الحياة بدأت من الماء . . من ماء المستنقعات الذى
تختمر فيه المادة وتتحلل وتتركب بقوة غير معروفة الى الشكل
الاول للحياة . . البروتوبلازم . . لا أحد يعرف كيف نشأ
من الماء والتراب .

فاذا جئنا الى مبدأ الكون كله . . بنجومه وشموسه وكواكبه
فنحن امام اجماع من علماء الفلك بأن كل شئ نشأ من الهواء
من سحب الغاز والتراب الاولية .

تكاثفت هذه السحب من الغاز والتراب بفعل الجاذبية بين
ذراتها الى أنوية فى الوسط هى الشمس والى تكثفات أصغر
حولها هى الكواكب .

هذا مبلغنا من العلم فى قضية الخلق فى عرض سريع موجز .
فماذا قال القرآن حينما تعرض لهذه القضية منذ ١٤ قرناً
من الزمان . وماذا جاء على لسان ذلك النبى الامى الذى
لم يكن يعرف لا هو ولا قومه ولا عصره معنى
كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح
وانثروبولوجيا .



القرآن له أسلوبه المختلف عن كل الاساليب . . وهو
حينما يشير الى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرضها اينشتين
المعادلات ، ولا كما يعرضها عالم بيولوجى برواية التفاصيل
لتشريحية . . وانما يقدمها بالاشارة والرمز والمجاز والاستعارة
واللمحة الخاطفة والعبارة التى تومض فى العقل كبرق خاطف
نه يلقي بكلمة قد يفوت فهمها وتفسيرها على معاصريها . .
لكنه يعلم أن التاريخ والمسقبل سوف يشرح هذه الكلمة
يثبتها تفصيلا .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم
انه الحق »

(فصلت - ٥٣)

والله يقول عن كلامه :

« وما يعلم تأويله الا الله » رأسد
(آل عمران - ٧)

ويقول عن القرآن :

« ثم ان علينا بيانه »

(القيلة - ١٩)

اي أنه سوف يشرحه ويبينه في مستقبل الأعصر والدهور .
فماذا قال القرآن عن قصة الخلق ؟
انه يقول عن الله في البدء الاول :

« ثم استوى الى السماء وهي دخان »

(فصلت - ١١)

في البدء كان شيء كالدخان جاء منه الكون بنجومه
وشموسه .

« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل »

(الزمر - ٥)

وهي آية لا يمكن تفسيرها الا أن نتصور أن الارض كروية
والليل والنهار كنصفي الكرة ينزلق الواحد منهما على الآخر
بفعل دوران هذه الكرة المستمر . . بل ان استعمال لفظ
« يكور » هو استعمال غريب تماما . . ويفرض علينا هذا
التفسير فرضا .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »

(يس - ٢٩)

والعرجون هو فرع النخل القديم اليبس لا خضرة فيه
ولا ماء ولا حياة وهو تشبيه حرفي للقمر الذي لا خضرة فيه
ولا ماء ولا حياة .

« لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق
النهار وكل في فلك يسبحون »

(يس - ٤٠)

بل انه يصف الفضاء بأن فيه طرقا ومجاري ومسارات .
« والسماوات ذات الحجب » . والحجب هي المسارات .

(الداريات - ٧)

ويقدم فكرة الحركة الخفية من وراء السكون الظاهر :

« وترى الجبال تحسبها جاملة وهي تمر مر السحاب »

(النمل - ٨٨)

وتشبيه الجبل بسحابة هو تشبيه يقترح على الذهن تكويننا
ذريا فضفاضا مخلخلا وهو ما عليه الجبل بالفعل ، فما الاشكال
الجاملة الا وهم ، وكل شيء يتألف من ذرات .

وما يقوله المفسرون القدامى من أن هذه الآية تصف ما يحدث
يوم القيامة . . هو تفسير غير صحيح لأن يوم القيامة هو يوم
اليقين والعيان القاطع ولا يقال في مثل هذا اليوم « ترى
الجبال تحسبها » . . فلا موجب لشك في ذلك اليوم . .

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا »

(ه - ١٠٥)

هذه هي القيامة بحق ، لامجال هنا لأن تنظر العين فتحسب
الشيء قائما وهو ينسف .. فالآية اذن وصف الحال الجبال في
الدنيا ولا يمكن أن تكون غير ذلك .

ثم يروى لنا القرآن بعد ذلك ما يحدث لمياه الأمطار :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في
الأرض »

(الزمر - ٢١)

وهو بذلك يشرح دورة المياه الجوفية من السماء الى سطح
الأرض الى جوفها الى خزانات جوفية ثم الى نافورات وينابيع
تعود الى سطح الأرض من جديد .
ثم يأتي ذكر الحياة :

« وجعلنا من الماء كل شيء حي »

(الأنبياء - ٣٠)

« والله خلق كل دابة من ماء »

(النور - ٤٥)

« أكفرت بالذي خلقك من تراب »

(الكهف - ٢٧)

« واذا قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال
من حمأ مسنون »

(الحجر - ٢٨)

والحمأ المسنون هو الطين المنتن المختمر .
فهو مرة يذكر أن الحياة خلقت من الماء ومرة يذكر أنها
خلقت من تراب ثم يعود فيخصص ويقول من الطين أو على وجه
الدقة الماء المنتن المختمر المختلط بالتراب .. وهو اتفاق غريب

ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة .
وفي سورة الاعراف يروى بتفصيل أكثر :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا
لآدم فسجدوا الا ايليس لم يكن من الساجدين »

(الاعراف - ١١)

وفي هذه الآية يحدد أن خلق الانسان تم على مراحل زمنية
«خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم» والزمن
بالمعنى الالهى طويل جدا . « وان يوما عند ربك كألف سنة
مما تعملون »

(الحج - ٤٧)

وفي مكان آخر : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان
مقداره خمسين ألف سنة »

(المطارج - ٤)

هذه اذن أيام الله . . . وهى شىء كالأباد والاحقاب بالنسبة
لنا ، فاذا قال الله خلقناكم ثم صورناكم . . . ثم اكتملت
الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . معنى هذا
ان آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية
استغرقت ملايين السنين بزماننا وأياما بزمن الله الابدى . . .
« وقد خلقكم أطوارا » . . . ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم
صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها .

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا
مذكورا »

(الانسان - ١)

اشارة الى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الانسان يساوى فيها شيئا يذكر .

ويقول القرآن عن الله أنه هو « اللى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى » أى أنه هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها فى آدم .

« وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم »

(الانعام - ٣٨)

هنا ربط القرآن بين جميع المخلوقات فى وشيجة عائلية واحدة . . . انها كلها امم امثالنا .

واعجبني فى كتاب للمفكر الاسلامى محمود طه بعنوان (رسالة الصلاة) تعبير جميل يقول فيه : ان الله استل آدم استللا من الماء والطين « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين » انه الانبثاق من الطين درجة درجة وخطوة خطوة من الاميبا الى الاسفنج الى الحيوانات الرخوية الى الحيوانات القشرية الى الفقريات الى الاسماك الى الزواحف الى الطيور الى الثدييات الى أعلى رتبة آدمية بفضل الله وهديه وارشاده . . ثم يحدثنا القرآن عن تخلق الجنين .

« يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث »

(الزمر - ٦)

ويكشف لنا الخلق داخل الرحم ، فيصفه بأنه يتم على أطوار . . خلقا من بعد خلق . . وانه يجرى داخل ظلمات ثلاث . . والظلمات الثلاث ، هى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الغلاف الامنيوسى . . كل غرفة منها داخل الاخرى . . والجنين فى قلبها ، وهى حقائق تشريحية .

كيف جاء القرآن بهذه الموافقات التي اتفقت مع نتائج العلوم والبحوث والجهود المضنية عبر مئات السنين ! • مصادفة ١٤
وإذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نسلم بالباقي ؟
وكيف يخطر على ذهن نبي أمي مشكلات وقضايا وحقائق لا يعرفها عصره .. ولا تظهر الا بعد موته بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة .

وإذا أخذنا بالتفسير الغربي للمحمد الذي يرى في ذلك الكلام الذي يجيء على لسان محمد صورة من نشاط عقل باطن انفتح تماما على الحقيقة المطلقة • إذا قلنا هذا فقد اعترفنا اعترافا مهذبا جدا وعلميا بالوحي .. فما الحق المطلق سوى الله .. وما الانفتاح على الله والاتصال به الا الوحي بعينه .

ولكن القصة لم تنته .

ان القرآن يزودنا بما هو اكثر من كل ما قاله العلم .. فيطلعنا على بعض الغيب .. على ما حدث في الملكوت في الملا الأعلى قبل الخلق الأرضي لآدم فيروى لنا مرحلة سابقة لهذا الخلق .

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين »

(التين - ٤ - ٥)

ان ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الارض كان ردة وكان انتكاسا وعقابا لحطيئة سوف نفهم تفاصيلها .

فقد خلق الله آدم في البهية في احسن تقويم كاملا لا عيب فيه لا يمرض ولا يموت ، وخلق له من نفسه زوجة هي حواء واسكنه في كوكب الجنة واسجد له الملائكة واشترط عليه هبوطا واحدا لتدوم له هذه النعمة هي الا يأكل من شجرة عينها • • كل هذا حدث في السماوات - وهو من قبيل الغيب المطلق

الذى يرويه لنا القرآن ولا نحيط به بعلمنا .. وقد جرى فى
الازل قبل المرحلة الارضية للوجود الأدمى .
ويروى لنا القرآن كيف أن الملائكة سجدوا لآدم :

« الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه »

(الكهف - ٥٠)

ويقول ابليس فى كبرياء وغرور مبررا عصيانه للأمر الالهى
بالسجود لآدم .

« انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »

(ص - ٧٦)

انه لم يدرك حكمة الله فى تشريف ابن الطين .. ولكن الله
وحده كان يعلم ان آدم سوف يتعذب نتيجة خلقته المتصارعة
من التراب ومن الروح وانه سوف يعانى عناء هائلا ويتمزق
بين رغبات جسده الهابطة وسبحات روحه وضميره المتعالية .

« لقد خلقنا الانسان فى كبد »

(الهل - ٤)

هى فى مكابدة مستمرة وصراع وهناء .

ولهذا اسجد الله له الملائكة وسخرهم لخدمته ومعونته لانه
علم سريرة ذلك المخلوق الذى له جسم الطين وروح الله
واستحقاقه للرعاية فى كل أطواره .

ولكن ابليس فى كبريائه وغروره وتجبيره فاتته هذه الحقيقة
ولم يذكر الا انه خلق من نار وأن آدم خلق من طين وانه خلق
قبل آدم .

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم »

(الحجر - ٧٧)

ونار السموم هى النار الصافية بلا دخان او من الطائفة
الحالصة ذاتها .. وهكذا رفض ابليس السجود لآدم وخرج

من الحضرة الربانية رجيما مطرودا وبدلا من أن يرجع الى الله
تائباً آملاً في رحمته ومغفرته .. فانه يشس تماما من هذه
الرحمة .. وهذه هي الخطيئة الثانية .. ثم أضمر الحقد
والعداء والانتقام من آدم الذي تصور فيه سببا لطرده وهذه
هي الخطيئة الثالثة .. انه الشيطان بعينه الذي يحاول أن
يخرج من خطيئة بخطيئة وينحدر من هاوية الى هاوية .

وهكذا راح يغري آدم بالأكل من الشجرة ويزينها له
ويصورها بأنها شجرة الخلود وهو يعلم أنها شجرة الموت .

« وعصى آدم ربه فغوى »

(طه - ١٢١)

لقد منح الله آدم الحرية (اذ نفخ فيه من روحه) وخيره في
أن يختار الدخول في طاعته فيكون شأنه شأن النجوم في
أفلاكها تجرى على نواميس الله الموضوعة وتسلم نفسها لسننه
أو يكون حرا مستولا فيحمل الأمانة .

« انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال
فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان
كان ظلوما جهولا »

(الأحزاب - ٧٢)

والانسان لم يدرك مخاطر هذه الأمانة لجهله فظلم نفسه بحملها
ولأن الله كان يعلم مخاطر حمل هذه الامانة .. وكان يعلم
أنها سوف تلقى الانسان في مهالك الغرور .. فانه لطفاً منه
ورحمة أمره بالطاعة وبالاسلام لكلمة الله بالأكل من الشجرة
لتدوم له الجنة (جنة الطاعة والاسلام للناموس الالهي) .

ولكن الانسان اختار أن يكون حرا مستولا وأن يخرج على
الأمر الالهي (باغراء ابليس) فيأكل من الشجرة .. وهكذا
وقع عليه التكليف وأصبح محاسباً منذ تلك اللحظة .. وحق
عليه العقاب .

وكان العقاب هو الطرد والاهباط من تلك الجنة الى الارض
والنزول الى التيه المادى .

« لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل
سافلين »

(التين - ٤ - ٥)

واسفل سافلين هى هاوية التيه المادى . الى طين
المستنقعات . هذه المرة الى مجرد جرثومة فى طين الارض .
الى نقطة بدء اولى . من الصفر .

وكان على آدم ان يخرج من هذا التيه المادى (فى انبثاق
متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم
البيولوجيا وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الاولى والاميبا
صعدا الى الاسفنج والرخويات والقشريات . الخ . الخ .
فى رحلة قاسية وعبر صراعات دامية مع بيئات متعددة تكافح
فيها الحياة الوليدة بالمخلب والناب) .

انها رحلة أشبه بالخروج من الرحم . من رحم الارض
ذاتها .

وهى الرحلة التى يعطينا الجنين تلخيصا سريعا لها فى
تسعة أشهر .

وكان الفرق بين خطيئة آدم وخطيئة الشيطان . ان آدم
رجع الى الله تائبا طامعا فى رحمته بينما أصر الشيطان على
العصيان يائسا من رحمة الله .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »

(البقرة - ٣٧)

وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه فى رحلته الدامية وأخذ
بيده خارجا به من رحم الارض ومن طين المستنقعات حتى وقف
منتصباً على قدميه محاكياً آدم الاول . آدم الصورة والمثال الذى
خلقه الله فى الملكوت . ولكنه هذه المرة آدم جديد يولد

ويعرض ويشيخ ويموت ويكدح لياكل ويعرق ليعيش .

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمدك ونقدس لك »

(البقرة - ٣٠)

يقول الملائكة ذلك الكلام لانهم رأوا هذا الآدم وشاهدوه في
رحلته الدموية واطواره الارضية وهو يسفك الدم .
ولكن الله يقول لهم :

« انى أعلم ما لاتعلمون »

(البقرة - ٣٠)

وهو يعلم ان ذلك الانسان قد استحق بهذا الصراع المرير
درجة ارفع من درجة الملائكة . . . وأنه قد اكتسب لياقات تؤهله
للخلافة . . . وهو يكشف هذه الحقيقة للملائكة :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال
انبتوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك
لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم
انبتهم بأسمائهم فلما انباهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم
انى أعلم غيب السماوات والارض »

(البقرة - ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣)

ها هو ذا آدم الارضى وقد امتلك لياقات اكبر من لياقات
الملائكة .

ونفهم من هذا ان الله قد جعل من هذا الآدم اول انبيائه على
الارض . . . فكلمة « علم آدم الأسماء كلها » هي بداية الوحي
والتنزيل والتعليم الالهي .

والله فى القرآن « رب » بمعنى مرب وراع ومعلم وهاد
رحوف رحيم ودود يعنى بمخلوقاته ويخلق لها الحيل والاسباب
ويوفر لها الارزاق .

وقد وعد الله آدم برسالة الأنبياء لهداية نسله وأولاده .
« فاما ياتينكم منى هدى فمن تبع هدى فلا خوف عليهم
ولا هم يحزنون »

(البقرة - ٢٨)

ويشرح لنا القرآن معنى اتباع الانسان لهدى الله . . وذلك
بأن يفتن الانسان الى خطئه ويعود الى الجنة التي ضياعها
أبوه . . جنة الطاعة والاسلام للنواميس الالهية . . وهذه هي
الانابة والرجعة التي تتكرر في كل صفحة في القرآن . . ان
يفتن الانسان الى أنه لا يملك الا ضميره (قدس الأقداس الذي
تركه الله حرا بالفعل) فيسلمه خالصاً لله ويتجه به مختساراً
طائعا . . وقد وكل امر نفسه الى خالقه وخضع لنواميسه . .
يفعل هذا وقد أدرك أن مشيئة الله واقعة ان طوعا وان كرها . .
وأن الله هو الخالق المهيمن على جميع الأسباب وأنه هو الوحيد
الذي يملك الهداية والعلم والقدرة . .
هناك اذن مرحلتان من خلق آدم . . آدم المثال الذي خلقه
الله في أحسن تقويم ليكون الى جواره في الملكوت . . وآدم
الأرضي الذي انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل
سافلين حيث ألقى به مبعدا مطرودا . .
وعلى آدم الأرضي هذا أن يكافح ليحقق لنفسه التكامل الاول
وأن يعود الى أحسن تقويم :

« يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

(الانشاق - ٦)

علينا أن نسعى في هجرة الى الله صاعدين كادحين متخذين
الله مثلنا الاعلى : « والله المثل الأعلى في السموات والأرض »
وهذه هي الانابة والرجعة صعدا من عالم الملك الى عالم الملكوت
في محاولة لتحقيق المثال والكمال الاول .
وتعود فتطالعنا آيات أخرى غامضة في القرآن نفهم منها أن

كلا منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين .. فنقرأ في
سورة الاعراف :

« واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم
على انفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم
القيامة انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا انما أشرك آباؤنا
من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون
وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون »

(الاعراف - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤)

ان الله يفصل لنا في هذا الآيات واقعة غريبة .. يفهم منها
اننا كنا في حضرة الله قبل النزول الى الارحام (في عالم المثال
والملكوت) ربما كارواح لا أحد يدري .. وان الله أشهدنا على
ربوبيته وأخذ منا ميثاقاً بهذا الشهود حتى لا نعود فنكفر
ونبرر كفرنا بأننا ضحية الآباء .
ونعود فنقرأ عن هذا الميثاق في آيات أكثر غموضاً في سورة
آل عمران :

« واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة
ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه
قال اقررتم واخذتم على ذلكم اصرى (عهدى) قالوا
اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين »

(آل عمران - ٨١)

ها هم الأنبياء مجموعون ليأخذ الله عليهم ميثاقاً غليظاً بأن
يؤيد بعضهم بعضاً .. كيف كان ذلك .. وأين .. ومتى ..
هي آيات كواشف تشير الى مرحلة روحية عشناها في
الملكوت قبل النزول الى الأرحام .. والى أنه كان لنا ثمة وجود
قبل الميلاد .. كما أن لنا وجوداً بعد الموت .. شأننا في ذلك
شأن آدم الذي بدأ حياته في أحسن تقويم ثم انزل الى أسفل
ساقطين ليعانى محنة الاختبار وليحكم عليه بأن يرتفع الى الله

جهادا وكدها جزاء له على كفره للنعمة التي كان فيها حينما خلقه الله ابتداء وفي أحسن صورة .

وفي حديث شريف يشير نبينا محمد الى هذا الوجود الروحي السابق للميلاد حينما يقول : « كنت نبيا و آدم بين الروح والجسد » .

ويهوا الله في القرآن لمحمد : « قل ان صلاتي ونسكي ومحبي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا أول المسلمين »

(الأنعام ١٦٢ - ١٦٣)

وهي كلمات تعنى سبق الوجود المحمدي على جميع الانبياء اذ يعتبر القرآن جميع الانبياء مسلمين ومحمد أولهم .
وهي اشارات تدل على وجود روعي سابق على الميلاد كنا فيه في عالم ملكوتي قبل أن ننزل الى الارحام .



فاذا عدنا الى الشجرة . . . لنسأل ما هي . . . هل هي رمز . . . أم حقيقة ؟ . . . وجدنا أمامنا اختلافا كثيرا .
يقول بعض المفسرين أنها شجرة المعرفة وأنها رمز . . . وهو تفسير غير مقبول . . . فالله لم ينه الانسان عن طلب المعرفة بل هو على العكس كان يحضه على طلب العلم .
« وقل رب زدني علما »

(طه - ١١٤)

« قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق »

(العنكبوت - ٢٠)

والبعض أخذها بحروفها بدون تأويل على أنها شجرة لها ثمر أشبه بما نرى حولنا من فواكه الدنيا والبعض قال هي شجرة الخنطة أكل منها آدم فجرى عليه ما يجري علينا من رغبة في التبرز وقضاء الحاجة لطرده الفضلات وهكذا انكشفت له عورته وطفق يخصف على عورته من ورق الجنة كما جاء في ظاهر الآية .

وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا . . . حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح الجنسي لتتكاثر فكتبت على نفسها طارئ الموت . . . ولم تكن الكائنات قبل ذلك تموت بل تتجدد وتعود إلى الأسباب بالانقسام الذاتي .

كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم . . . وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في الجنة . . . وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسي فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة .

وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هي ايدان يبدء الموت والطرود من جنة الخالدين فكذب على آدم وسول له أنها شجرة الخلود بعينها وأغراه بأن يخالط زوجته بالجسد .

ومما يدل على أن الشجرة رمز للجنس ما يروى القرآن عن آدم وحواء بعد تذوق الشجرة وكيف بدت لهما سوءاتهما (والسوءة هي العورة) وكيف طفقا يغطيانها بأوراق الشجر خجلا . . . والحجل من الأعضاء التناسلية لا يأتي إلا بعد تذوق اللذة منها ولهذا لا يخجل الطفل من أعضائه التناسلية ولا يغطيها بينما يخجل البالغ حتى من ذكر اسمها . . . ثم نرى القرآن يخاطبهما بعد تذوق الشجرة على أنهما جمع فيقول : « اهبطوا بعضكم لبعض علو »

(الأعراف - ٢٤)

بينما كان الخطاب في نفس الآيات قبل الخطيئة إلى مثنى : « فكلا من حيث شئتها ولا تقربا هذه الشجرة »

(الأعراف - ١٩)

ومعنى هذا أن الأكل من الشجرة أدى إلى التكاثر .

وما زالت اللذة الجنسية إلى الآن رمزا للتهابط الدنيوي والبهيمية . . . وما زالت مناط الاغراء والسقوط . . . وليس الأكل .

ويقال أن شريعة الطهارة وقطع الغلظة الزائدة من العضو التناسلي كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء نقرزا مما فعل .. ثم أصبحت تقليدا دينيا من يومها .

ولا يوجد مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدي الى اطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ومن ثم تلقي بادم الى المخالطة الجنسية وتكون الآية صادقة حرفيا ومجازيا .

ولا يمكننا القطع في هذه المسائل .. ويجب أن نقول أن الشجرة مازالت لغزا .. وان قصة الخلق مازالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد والله أعلم بكتابه وهو وحده الذي يعلم تأويل ما فيه .



ويحدثنا القرآن في قصة الخلق عن السموات السبع :

« الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن »

(الطلاق - ١٢)

« الذي خلق سبع سماوات طباقا »

(الملك - ٣)

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق »

(المؤمنون - ١٧)

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا »

(المؤمنون - ١٧)

والسموات السبع سر لا يفهمه العلم ولكن هناك أمرا مثيرا للتأمل . أن يكشف لنا العلم مثلا أن الضوء سبعة ألوان هي ألوان الطيف وسبع درجات من الأطوال الموجية من الاحمر الى

البنفسجى ثم يعود فيتكرر السلم فى سبع درجات أخرى من تحت الأحمر لفق البنفسجى .. وبالمثل السلم الموسيقى سبع درجات ثم تعود الثامنة فتكون جوابا للاولى وهكذا تتكرر النغمات سبع سبعات .

هل معنى هذا أننا سوف نكتشف يوما ما أن الوجود مرتب فى سبع درجات فى جميع حالاته .. وان هناك سكما يكرر نفسه من أسفل سافلين الى أعلى عليين .. سبع سماوات وسبع أرضين .. مثلما للضوء سبع درجات والالوان سبع درجات والانغام سبع طبقات .

هذا مجرد احتمال .. ولكنه يشير الى أن ما فى القرآن من اسرار لا يمكن المرور بها مرورا هينا .. وانها تحمل مدلولات غاية فى العمق .

الجنة والجحيم

أحد أسباب انصرافي عن القرآن في شبابي ما قرأته عز
«أنهار العسل وأنهار الحمر في الجنة .. وأنا لا أحب العسل
ولا أحب الحمر .. فاعتبرت هذه سذاجات وانسحب حكماً على
القرآن ثم على الدين كله .

والساذج في واقع الأمر .. لم يكن إلا أنا .
فأنا لم أحاول أن أتفهم النص القرآني ولا أن أعكف حتى على
ظاهر عباراته فما بال باطنها .. وكنت في عجلة من أمرى .
وكان الانصراف غايتي وشهوتي .. وغطت هذه الشهوة على
كل شيء فضاعت معالم الحقيقة من أمامي .. وفاتتني أمور
كانت شديدة الوضوح .

فماذا يقول القرآن في الجنة ؟

« مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير
آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة
للشاربين وأنهار من عسل مصفى »

(محمد - ١٥)

والآية تبدأ بانها ضرب مثل . « مثل الجنسة التي وعد المتقون » وليست ايرادا لأوصاف حرفية . فهذا أمر مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا لا يمكن تصويرها في كلمات من قاموسنا .

تماما كما يسألك الطفل عن اللذة الجنسية . فتحار كيف تصفها له فهي بالنسبة له غيب خارج عن حدود خبراته تماما وبعد أن تعجز عن توصيل المعنى اليه تقول على سبيل ضرب المثل وعلى سبيل التقريب . . انها شيء مثل السكر .

لقد اخترت له شيئا من خبراته اليومية .

ومع ذلك فما أبعد المعنى .

وما أبعد الفارق بين اللذة الجنسية وبين طعم السكر العادي المتذلل .

وبالمثل كان موقف القرآن في مخاطبة البدوي البسيط .

وكل أمنية البدوي الذي يعيش في هجير الصحراء أن يعثر على نبع ماء عذب . . فكل ما يجد من مياه ما هو الا ينابيع مالحة أسنة .

وكذلك اللبن . . فما أسرع ما يختمر ويتغير طعمه في حر الصحارى . . فيضرب له القرآن المثل من أعز ما يتمنى .

« ان الله لا يستحي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »

(البقرة - ٢٦)

فكل الغاية هي تقريب تلك المعاني المستحيلة بقدر الامكان . وكل ما جاء عن الجنسة والجحيم ما هو الا ألوان من ضرب المثل . . وألوان من التقريب وألوان من الرمز .

وفي العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلا :
« يضع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجيل وليمة
سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل
الوجوه »

وفي تراتيل القديس أفرام :

« ورأيت مساكن الصالحين .. رأيتهم تقطر منهم العطور
وتزينهم صفائر المساكه والريحان .. وكل من عف عن
الشهوات تلقته الحسان في صدر ظهور »

انها صور مشتركة في جميع الاديان .

ولكن القرآن لا يتركنا في ضباب الامثلة فما يلبث ان يقطع
بالقول الفصل .

« فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما
كانوا يعملون »

(السجدة - ١٧)

انه يحيل القضية كلها الى غيب لا يمكن التعبير عنه بلغة
الارض .

هنا كل منى العين والقلب مما لا يمكن تصويره بالفاظ .
أما جهنم فهي شيء فظيع .. لاهو بالحياة ولا هو بالموت .

« ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه
عذاب غليظ »

(ابراهيم - ١٧)

« فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة »

(البقرة - ٢٤)

ثم يشرح لنا أكثر :

« لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك
يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون »

(الزمر - ١٦)

ها هو ذا بين لنا حقيقة جديدة .. فيقول انه يورد
الالفاظ للتخويف .

ولكنه ليس تخويفا على غير اساس .

انه مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من اهمال نظافة
اسنانه وتقول له .. اذا لم تنظف اسنانك بالفرشاة فان
الفئران سوف تأكل اسنانك .. تقول ذلك محبة منك ورحمة
لطفلك .

وبالطبع .. الفئران لن تأكل اسنانه ..

ولكن التخويف على اساس .. لان ما سوف يحدث له اذا
أهمل سيكون ألعن من جميع الفئران .. اذ سوف تتسوس
أضراسه .

ومن جرب الآلام الرهيبة لضرس مسوس .. يعرف انها
أسوأ من الفئران كلها مجتمعة .

انه تخويف العزيز الرحيم من شيء سوف يحدث بالفعل
وسيكون أسوأ من جميع ما قيل وكتب .. مما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ان العذاب حق .. والثواب حق .

وهنا يعترض معترض .

الا يتناقى مع رحمة الله ومع عظمته أن يعذب .. ويصنف
من ؟ .. انسانا مسكينا لا يساوى ذرة أو هبابة في مملكة الله
اللانهاية ..

وهو اعتراض كان يشغلنى دائما وكان يصرفنى دائما عن
قبول فكرة العذاب وبالتالي عن القرآن وعن الدين كله .
والسؤال يحتاج منا أن نتعمق معنى كلمة عذاب .

• والله بالفعل لا يعذب •

• انما هو فقط يعدل •

ولو أنه ساوى في آخرته بين ظالم ومظلوم .. بين قتييل والقاتل الذى قتله .. لو أنه فعل ذلك بحجة الرحمة لكان أبعد ما يمكن عن الرحمة .. وعن العدل .. فالمساواة بين غير المتساوين ظلم فادح .. تعالى الله عن أن يقع فيه •
ثم هي الفوضى أن يكون الابيض فى عين الله كالاسود ، والاعمى كالبصير ، والميت كالحى ، والذى يسمع كمن لا يسمع •

• والكون ينفى الفوضى •

وتأمل كل جزئية فى الكون تكشف لك عن النظام المحكم والقانون الذى لا يفوته واحد من ألف من الملى جرام •

وحركة الكترون من مدار الى مدار فى داخل الذرة لاتتم الا بحساب ، فهو لا بد له أن يعطى حزمة من الطاقة ليقفز الى الخارج قفزة مساوية ، ولا بد له أن يمتص حزمة اخرى ليقفز الى الداخل قفزة مساوية .. انه محاسب فى حركاته .. وهو الكترون .. فما بال الانسان العاقل وهو بالنسبة للالكترتون كالمجرة والفلك بالنسبة للانسان .. وقد نفخ الله فيه من روحه فهو شيء عظيم .. وليس فى هوان الذرة ولا الالكترتون •
ثم ما معنى أن يموت مظلوما وظالما فيصبح ترابا بلا بعث ويذهب ما حصله من خير وشر وعلم وحكمة سدى •
انها تكون مجرد سخافة •

« وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون »

(الباقية - ٢٤)

وهو ظن خاطيء .. لان الحياة تكون به مجرد لعبة عبثية وباطل فى باطل •

والعقل المتأمل لا يقول هذا أبدا . انه ليتفكر في خلق الكون ونواميس الفلك المحكمة ويهتف من أعماقه :

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه »

(آل عمران - ١٩١)

مستحيل أن ينتهي كل هذا الى باطل . . لا بد أن هناك استمرارا بطريقة ما . . ولا بد أن تتضح لنا الحكمة من كل هذا في ميقاتها .

انها قضية عدالة وقضية منطق وليست قضية تعذيب .
والواقع أن الله بالفعل لا يعذب .
والذي سوف يحدث لنا بعد البعث هو أن كل واحد ستلازمه رتبته ودرجته التي حصلها في الدنيا لا أكثر .

« فقد كذبتم فسوف يكون لزاما »

(الفرقان - ٧٧)

فمن عاش لا يسمع ولا يعقل ولا يبصر الحق سوف يحشره الله أعمى .

« ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »

(طه - ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦)

انها مجرد صفتك تلازمك « سوف يكون لزاما »
ان الله لا يعذبك . . ولكنك تعذب نفسك بجهلك .

« وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

(النحل - ١١٨)

من عاش في الدنيا حيوانا لاهم له الا أن يأكل ويضاجع فهو في الحياة الثانية له رتبة الحيوان أو الرتبة السفلى بالنسبة لغيره ممن عاشوا يتأملون ويعقلون .

وفى الآخرة تنزايد الفروق وتتضاعف . . فما بين اثنين
سوف يكون أكثر بمراحل من فارق الدرجة بين حيوان
وانسان .

**« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر
درجات وأكبر تفضيلاً »**

(الاسراء - ٢١)

« سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله »

(الانعام - ١٢٤)

ان هذا الصغار هو الذى سيعذب ويحرق . . لانه سيكون
حسرة على صاحبه حينما يرى مكانته ومكانة الآخرين ومقدار
ما خسر ومقدار ما كسبوا .

« ربنا انك من تدخل النار فقد أخرجته »

(آل عمران - ١٩٢)

الله يعتبر الحزى فى هذه الآية أشد من النار ايلا ما .

وكما يصف الانجيل هذا العالم الآخر « عالم البكاء وصرير
الاسنان » . المجرم فيه يصر على أسنانه ندما على ما يرى من
من هوان شأنه أمام الدرجات العالية التى أصابها الآخرون .
ويصف القرآن أهل الجنة فى تلك الدرجات بأنهم المقربون .
المقربون من الله . . من الحق .

« فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »

(القمر - ٥٥)

ويروى لنا أن الله يكلمهم وينظر اليهم وانهم على أسرة الملك
متقابلين قد نزع الله ما فى قلوبهم من غل فاصبجوا اخوانا
متحابين .

ويصف الجنة بأنها دار السلام . . وأنه لا حرب فيها ولا
كذب ولا لغو ولا سباب .

ثم يتأكد المعنى من هذه الآية في سورة الاسراء التي توصي
بالتهدد في الليل .

**« ومن الليل فتهدد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك
مقاما محمودا »**

(الاسراء - ٧٦)

انها اذن مسألة مقامات . كل واحد يبعث على رتبته
ومقامه .

الله لا يعذب للعذاب

وانما يأتي العذاب واحترق الصدر من احساس من هم في
أسافل الدرجات بالغيرة والحسد والهوان والحسران الابدى
الذى لا مخرج منه . . وسوف يحرق هذا الاحساس الصدور
كما تحرقها النار وأكثر . . وسوف يكون هوالتكال والتنكيل . .
ينكل الواحد منا بنفسه بالدرجة التي وضع نفسه فيها والتي
انحدر اليها بأعماله في الدنيا .

ومما يدل على أن النار في الآخرة هي غير ما نعرف من نارنا
هذه الايات من سورة الاعراف .

**« وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين قال
ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في
النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا ادركوا فيها
جميعا (حتى اذا أدرك بعضهم بعضا) قالت اخرائهم
لأولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فاتهم عذابا شديدا من النار
قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون »**

(الاعراف - ٣٧ ، ٣٨)

انه حوار ومكالمة فى النار يجرى بين المعذبين . . وفى مثل نارنا لا يمكن أن يجرى حوار بين اثنين يحترقان .
والمعنى الثانى العميق فى الآية (لكل ضعف ولكن لا تعلمون »

ان أمامنا اثنين يتعذب الواحد منهما ضعف الآخر مع انهم فى نفس المكان ، ومعنى هذا أن العذاب فى الشخص وليس فى المكان ذاته . . وهذا لا ينفى أن يكون العذاب المذكور حسيا بل انه من الممكن أن يكون معنويا وحسيا فى نفس الوقت (كما يحدث أن يتعرض اثنان للحر اللافح فيصاب أحدهما بالصداع بينما يتحمل الآخر بسبب اختلاف درجات اللياقة عند الاثنين) والصداع ألم حسي ومعنوي .

ويروى القرآن عن أهل الجنة وكيف انهم يتذكرون وهم يأكلون فاكهة الجنة انهم قد رزقوا أنواع هذه الفاكهة حينما كانوا على الارض (مع الفارق فى الجوده)
وكيف ان لهم زوجات فى الجنة ولكنهن زوجات مطهرات (لسنن كزوجات الارض يعانين الحيض والحمل والمخاض .
شكسات غيرات متسلطات)

تقول الآية عن هؤلاء الصالحين فى الجنة :

« كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وآتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون »

(البقرة - ٢٥)

والجنة بهذه الصورة هى درجة ومقام . . فيها كلما تعرف على الارض ولكن مع تفاوت هائل فى الرتبة . . تفاوت يفوق التصور . . تفاوت مثل التفاوت بين الزمن والابد ومثل التفاوت الذى ذكرناه بين طعم قطعة سكر وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ .

وإذا ذكر العسل في مثل هذه الجنة فهو عسل ولكن لا كما
نعرف من عسل واللبن هو اللبن ولكن لا كما نعرف من لبن
والنساء لا كما نعرف من نساء .

انها ستكون أشياء مذهشة كالغيب بالنسبة لما نعلم . .
يقول الشاعر عن امرأة يحبها أن جسمها يضيء كأنها صيغت
من النور . . أنها أحلام يمكن أن تكون هناك حقائق .

وبالمثل ما يروى القرآن عن النار . . فهي نار لا كما نعرف
من نار . . والمعذبون فيها يتكلمون ويتحاورون فاجسادهم
لا يمكن أن تكون لها نفس كيمياء الأجساد كما نعلمها والا
لتبخرت دخانا في لحظات ولما استطاعوا ان يتبادلوا كلمة .

ومعنى هذا أننا سوف نبعث أجسادا ولكن لا كالأجساد
. . ربما كيانات لها ذات الهيئة والصورة ولكن من مادة مختلفة
هي بالنسبة لنا غيب . . انها لن تكون الاجساد الترابية التي
تكون منها الآن في حياتنا الارضية .

ولهذا يمكن أن يتضاعف العذاب وتتضاعف المتع حسيا
ومعنويا بطريقة نجهلها . . وكما يتوزع الناس مراتب ودرجات
بحسب لياقاتهم . . . تكون لكل مرتبة مواصفاتها الحياتية التي
تكفل لمن فيها حظوظا من السعادة أو الشقاء كل حسب قدره
واتصور أن أعلى الناس قدرا في الجنة هم الذين سيرتفعون عن
متع الحواس وجنة الحواس ويختار لهم الرحمن درجة الحياة
الروحية الخالصة الى جواره في سدرة المنتهى حيث لا تكون
اللذة هي لذة طعام ولا لذة شراب ولا لذة حور عين وانما لذة
النظر الى الله في كماله ولذة تأمل الحق والجمال وصورة الخير
المطلق .

انها لذة الجالس على يمين الله « في مقعد صدق عند مليك

مقتدر »

(القمر - ٥٥)

وهي مرتبة المفضلين من الانبياء ومن في مقامهم .
وهكذا تشتمل الجنة على جميع الدرجات من المتع الحسية
ارتفاعا حتى المتع الروحية الخالصة ينال كل منا ما تؤهله له
رتبته .

كل هذه آيات كواشف ذات دلالة تدلنا على أن النار ليست
هي نارنا ولا الله هو الباطش الارهابي .
وانما الله سوف يبعث كل واحد على رتبته ومقامه ودرجته ،
لأن هذا عين العدل وهو العادل .
وانما سوف يتأتى العذاب من تفاوت الرتب تفاوتا عظيما ،
ثم بالسقوط في تقييم أبدى لا مخرج منه يلزم صاحبه كما
تلزم الاصبع بصمتها .

وهو عذاب أكيد وجحيم أكيد سوف نراه عيانا ويقينا :
« **كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين
اليقين** »

(التكاثر ٥ - ٦ - ٧)

ولأن الله يعلم أن هذا العذاب سوف يكون رهيبا . . فقد
حذرنا وخوفنا بالالفاظ المجلجلة وأرسل لنا الانبياء مبشرين
منذرين مؤيدين بالمعجزات والحوارق والآيات والكتب . . فعل
ذلك رحمة منه وحنانا وعظفا . . وهو القائل في حديثه
القدسى : « **سبقت رحمتى غضبي** »

وفي سورة الفاتحة يصف نفسه أولا بأنه الرحمن الرحيم
قبل أن يقول مالك يوم الدين . . وهو يوم الحساب . . يوم
الغضب . . يوم يحق القول على العالمين بلا رجعة .
ولأنه رحيم فقد فتح باب التوبة وإصلاح الخطأ على مصراعيه .

« **قل يا عبادة الدين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا** »

(الزمر - ٥٣)

ثم اتمام شروط المغفرة :

« واني لغفار لمن تاب وامن وعمل صالحا ثم اهتدى »

(٤ - ٨٧)

وامر بالصلاة .. ثم قال : « والذكر الله اكبر »
مجرد ان تتذكر ان هناك قوة الهية وان يشخص هذا المعنى
بي ذاكرتك وفي افعالك على الدوام .. ينجيك ويحقق لك
شرط المؤمن .. ويكون افضل من صلاة المصل الذي ليس في
نليه ذكر .

وكلمة « الذكر » في القرآن كلمة عميقة المعنى والدلالة .
فالقرآن نفسه اسمه ذكر ، والتدين والايمان هو مجرد تذكر :

« انما يتذكر اولو الالباب »

(الزمر - ٩)

« واذا ذكروا لا يذكرون »

(الصافات - ١٣)

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون »

(العنكبوت - ٩)

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

(القمر - ١٧)

« فذكر انما انت مدكر لست عليهم بمسيطر »

(الفاشية - ٢١ ، ٢٢)

« وليتذكر اولو الالباب »

(ص - ٢٩)

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا
فاذا هم مبصرون »

(الاعراف - ٢٠١)

وهنا ينبغي أن نقف وقفة تأمل طويلة .
فما هو هذا التذکر المطلوب .

ان أحدث النظريات النفسية تقول لنا . . ان المعارف كلها
تكون مخبوءة مكنوزة داخل نفس الانسان ولكن تحجبها عنه
غرائزه وشهواته . ولهذا فالتعلم هو في حقيقته تذکر .
بارتفاع حجب النفس وشفوفها . . ولا يكون تعلمنا من عدم .
فالطفل لا يتعلم أن $2 + 2 = 4$ وانما هو فقط يتذکر
حقيقة باطنة في روحه ، ولد بها .

وبالمثل الاحساس بالجمال والطرب هو نوع من التذکر
المبهم لعالم القدس وما فيه . . عالم الملكوت الذي كنا فيه قبل
النزول الى الارحام .

ولهذا السبب فان جمال المرأة مثلا هو جمال زائر وليس
جمالا مقيما لانه ليس جمالها هي . . وانما هو ظل ينعكس
عليها من الملكوت . . ثم ما يلبث أن يفارقها حينما يتغلب
قانون المادة والشيخوخة والتراب .

قبل ميلادنا . . كانت لنا ثمة حياة كأرواح .
وفي ذلك تقول الآية القرآنية البديعة :

« وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا »

(الاعراف - ١٧٢)

والآية تروى ما كان في الغيب قبل الخلق الدنيوي .
وكل الحلائق مما خلق الله ويخلق وسيخلق مثل الذر في
كفه ينظر اليهم ويشهدهم على أنفسهم . . الست بربكم . .
فيقولون بلى شهدنا . . وهو بهذا يأخذ عليهم ميثاقا غليظا
لانه يعلم أنه بعد الهبوط في الارحام وانسدال حجاب اللحم
الكثيف ونزول غشاوة الحواس والشهوات والغرائز
والامواه أنهم سوف ينسون تعلمنا . . ومصروف يتخبطون في
تكران وكفر وجهالة .

• وهو •• رحمة منه يرسل لهم الانبياء يذكرونهم •
ويقول لمحمد :

« فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »

(الفاشية - ٢١ ، ٢٢)

• ويقول عن الايمان انه حياة •

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم
لما يحييكم »

(الانفال - ٢٤)

لان اتصال الوجود الديني بالتذكر بالوجود المملوكوتي
الاول ثم بالوجود الاخرى •• هو فطنة الانسان الى حياته
بكاملها • وهي الحياة كل الحياة •

والله ليس بحاجة الى صلاتنا ولا الى صيامنا •• ولكن نحن
المحتاجون •• لعلنا في صلاتنا العميقة نتذكر ولعلنا بالعبادة
والتوجه نتصل بنبع وجودنا •• ونستمد منه حياتنا •

ان الصلاة والعبادة استمداد • نحن الذين نحتاجها لتكون
لنا حياة • وليس الله •• لأن الله هو الحى بذاته المستغنى
بوجوده عن كل شيء •

أما نحن فلا يمكن أن تكون لنا حياة الا بمدد منه •• من
الله •• الحى الذى به الحياة •

ونفهم من هذا أن الله فرض الفروض ووضع شرائع العبادات
من أجلنا وليس من أجل أن يشعر بألوهيته • فهو فى غنى
عنا •• وفى غنى عن أن يعذبنا •• وفى غنى عن أن يطلب منا
طلباً أو يفرض علينا فرضاً •

وهو بالفعل لا يفرض علينا فرضاً ولا يطالبنا بطلب
ولا بقيم علينا عذاباً ، كل هذا يبدو من ظاهر العبارات فقط •

أما باطن القرآن الذي يكشف نفسه لكل من جاهد في الفهم ،
أن الله هو الرحيم مطلق الرحمة العادل مطلق العدل الذي يعطي
مطلق العطاء ولا يأخذ شيئا ولا يحتاج لشيء .

وإذا كان في الدنيا الوان من العذاب فهي من عيون رحمته .

**« ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر
لعلهم يرجعون »**

(السجدة - ٢١)

إنها محاولات لا يقاظ العقل الغافل لعله يتذكر ويرجع
وينجو بنفسه من عذاب أكبر في الطريق . عذاب لن يكون
منه مخرج ولا مهرب . . . حينما تحقق على كل واحد رقبته
ودرجته .

ونفهم من القرآن أن سنة الله أن يوقظ الغافلين في الأرض
فيبتليهم بكل صنوف البؤس والمرض والعذاب لعلهم يفتنون
إلى ما في الدنيا من زوال وما وراءها من حقيقة باقية . . . يفعل
هذا رحمة بهم ولأنه يعلم ما ينتظرهم من ناموس عادل لن
يلطف بهم . . . حتى إذا نفذت فيهم كل هذه الآلام الدنيوية
ولم يتيقظوا . . . فتح الله عليهم أبواب كنوزهم ليتمتعوا
ببأسائهم .

**« ولقبه أرسلنا إلى أمم من قبلك فآخذناهم بالأساء
والضراء لعلهم يتضرعون فلولا (فلو أنهم) إذ جاءهم
بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان
ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم
أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما آوتوا أخذناهم بغتة
فإذا هم مبلسون (يانسون تماما) .**

(الأنعام - ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤)

فما يبدو لنا انه نعمة قد يكون في الحقيقة نقمة :

« فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم
بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون »
(التوبة - ٥٥)

« ايجسبون انما نملهم به من مال وبنين نسارع
لهم في الخيرات بل لايشعرون »
(المؤمنون - ٥٥ ، ٥٦)

« انما نمل لهم ليزدادوا اثما »

(آل عمران - ١٧٨)

فليس الخير الظاهر في الدنيا والنعمة الغامرة بعلامة رضا
الله في جميع الأحوال . . . ولا عذاب الدنيا وبلاؤها بعلامة
غضب الله في كل حال . . . فقد يكون الخير غضباً وقد يكون
البلاء لطفاً . . . ولا يكشف لك عن الحقيقة الا صوت ضميرك . . .
اذا رأيت البلاء يطهرك فهو نعمة . . . واذا رأيت النعمة تطغيك
فهى غضب .

ثم يتكلم القرآن عن أهل النعيم :

« ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم
كل آية حتى يروا العذاب الأليم »

(يونس - ٩٦ ، ٩٧)

وانهم اذ ينزل بهم عذاب الجحيم ليصرخون متوسلين .
« ياليتنا نرد ولا نكذب »

(الانعام - ٢٧)

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون »

(الانعام - ٢٨)

ان الله يعلم أنهم لو ردوا للدنيا لعادوا الى كبرياتهم .
 انه جهل واصرار على الجهل لا وسيلة لعلاجه . . لا الانبياء
 ولا المعجزات والحوارق والآيات . . ولا حتى مرور على الجحيم
 بكاف لردهم الى معرفة .
 ومن هنا يبدو البقاء في الجحيم رحمة ، فهو بالنسبة لبعض
 الجبارين الوسيلة الوحيدة الى المعرفة والتقويم .
 ان الله رحيم دائما حتى في جحيمه . ولهذا سمى نفسه
 « الرحمن » . . أي الرحيم مطلق الرحمة في جميع الاحوال
 لمن يستحق ومن لا يستحق . يرحم من يستحق بالجنة
 ويرحم من لا يستحق بالجحيم . فالجحيم كما رأينا هو تعريف
 لمن لا يعرف ولمن فشلت معه كل وسائل التعريف فهو نوع
 من الرحمة . ولهذا يقول في أجمل آياته :

« عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء »

(الاعراف - ١٥٦)

فادخل عذابه ضمن رحمته التي وسعت كل شيء ، ويفسر
 لنا الحساب فيقول :

« اقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

(الاسراء - ١٤)

حتى الحساب هنا يبدو انه حساب النفس للنفس . تعالى
 ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا .
 انما قد لزم كل واحد عمله كظله ولا خلاص . . وحق
 القول . . ونفذ العدل الأزلي .

ولكن هذه المعاني تضيع في النظرة المتعجلة والقراءة
 السطحية والوقوف عند الحروف وعند جلجلة الالفاظ .
 والالفاظ التي وصف الله بها القيامة كلها الفاظ رهيبة ذات

جلجلة وصلصلة . . . تفرع الأذان كالاجراس ، فهي : الساعة والواقعة ، والقارعة ، والزلزلة ، والدمدمة ، والفاششية والراجفة ، والرادفة ، والزجرة ، والسكررة ، والطامة ، والحاقة والصاخة .

هل سمعت لفظا اسمه « الصاخة » ؟!

انه لفظ يكاد يخرق طبلة الاذن . لأن الله علم أن الواحد منا في هذه الدنيا تتخطفه الشهوات وتبرق في عينيه المطامع فهو لا يعقل . . . وهو أصم لا يسمع .

فهتف في أذنه بهذه الكلمة . . . التي تكاد تخرق السمع من فرط ارتفاع ذبذبتها ليوقظه :

« فاذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وامه وإبيه »

(عبس - ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥)

فعل هذا رحمة ولطفا وحنانا . . . تعالى الله عن أن يعذبنا شهوة في عذاب .

وما العذاب الا لزوم ما يلزم وحلول الصفة بموصوفها وانتظام الارواح في سلم درجاتها الحق وانسدال الستار على هذا العالم الذي يتبارى فيه الناس على نوال ما لا يستحقون .

ونعطي مثلا لهذا التفاوت في الرتب فيما يشعر به كل منا في حياته الخاصة . . . من تفاوت المستويات التي يمكن أن يعيش فيها . . . لا نقصد مستويات الدخل . . . وانما نقصد شيئا أعمق . . . نقصد المستويات الوجودية ذاتها .

فالواحد منا يمكن أن يعيش على مستوى متطلبات جسده ، أكل همه أن يأكل ويشرب ويضاجع كالبهيمة .

ويمكن أن يسكت ذلك السعار الجسدى ليستسلم لسعار آخر هو سعار النفس بين غيرة وحسد وغضب وشماتة ورغبة

في السيطرة وجوع للظهور وتعطش للشهرة واستئثار لأسباب
القوة بتكديس الاموال والممتلكات وتربص لاصطياد المناصب .
وأكثر الناس لا يرتفعون عن هذه الدرجة ويموتون عليها
ولا يكون العقل عندهم الا وسيلة احتيال لبلوغ هذه الاسباب .
والحياة بالنسبة لهذه الكثرة من الناس غابة والشعور
الطبيعي هو العدوان وتنازع البقاء والصراع . . والهدف هو
التهام كل ما يمكن التهامه وانتهاز ما يمكن انتهازه . .
والواحد منهم تجده يتأرجح كالبندول من لهيب رغبة الى لهيب
رغبة أخرى . . يسلمه مطمع الى مطمع وهو في ضرام من هذه
الرغبات لا ينتهي .

وهناك قلة قليلة تكشف زيف هذه الحياة وتصحو على
ادراك واضح بأن هذا اللون من الحياة عبودية لا حرية . وأنها
كانت حياة أشبه بالسخرة والاشغال الشاقة خضوعا لغرائز
همجية لا تشبع وأطماع لا مضمون لها ولا معنى ولا قيمة . .
كلها الى زوال .

فتبدأ هذه القلة القليلة في اسكات هذا الصوت وفي تكبيل
هذه النفس الهائجة وقد اكتشفت أنها حجاب على الرؤية
وتشويش على الفهم .

وهكذا ترتفع هذه القلة القليلة في الرتبة لتعيش بمنطق
آخر . . هو أن تعطى لا أن تأخذ . . وتحب لا أن تكره . .
وتصبح هموم هذه القلة هي ادراك الحقيقة .

وعلى هذه القلة تنزل سكينه القلب فيتذكر الواحد منهم
ماضيه حينما كان عبدا لسعار نفسه وكأنه خارج من جحيم .
ومثل هؤلاء يموتون وقد انعتقوا من وهم النفس والجسد
وبلغوا خلاصهم الروحي وأيقنوا حقيقة ذواتهم كأرواح كانت
تبتلى في تجربة .

وما أشبه الجسد - في الرتبة - بالتراب . والنفس بالنار
والروح بالنور . وهي مجرد الفاظ للتقريب . ولكنها تكشف

لنا ان حكاية الرتب هي حكاية حقيقية .. وان كل من يموت
على رتبة يبعث عليها وان هذا هو عين العدل وليس تجبراً ^{١٥٦}
وقد يكون العذاب فوق الوصف اذا تجردت النفوس من
اجسادها الترابية ولم يبق منها الا سعار خالص وجوع بعث
واضطرام مطلق برغبات لا ترقى ثم عدوان بين نفوس شرسة
لا هدنة بينها ولا سلام ولا مصالحة الى الابد .. على عكس
أرواح تتعاش في محبة وتتأمل الحق في عالم ملكوتي .
أكد اجزم بأن الفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة
حينما تصف الجحيم انما هي نذير حقيقي بعذاب فوق التصور
سوف نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلاً وصدقاً على رتبة استحقاقها
كل منا بعمله .. وأكد اضح يدي على الحقيقة .. لا ريب فيها .
تعالى الله عن أن يعذبنا شهوة في عذاب .. وهو الحق
العدل الحكم .

وفي أخبار داود أن الله قال له :

« يا داود أبلغ أهل أرضي أنني حبيب لمن أحبني وجليس
لمن جالسني وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني .
ومطيع لمن أطاعني .. من طلبني بالحق وجدني ومن طلب
غيري لم يجدني »

أنعم به من رب رحيم .. وتقدس وتعالى عن الظلم
والعدوان .

الحلال والحرام

التحريم في القرآن ليس لمجرد التحريم
ولا التحليل لمجرد التحليل
وانما هو تحليل لكل ما هو طيب وتحريم لكل ما هو
خبث :

« ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »
(الاعراف - ١٥٧)

الله حرم الضار الخبيث
وأحل الطيب النافع ..
لم يصدر الامر تسلطا ومعاقبة وتضييقا على الناس
وانما أقام شريعته محبة ورحمة .
اذا لم نفهم هذه الحقيقة الجوهرية فسوف نتوه في حرفيات
لا آخر لها وتضيع منا روح القرآن كلية .
وعلى سبيل المثال نأخذ هذه الآية :

« قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم »

(النور - ٣٠)

« وقل للمؤمنات يقضن من ابصارهن »

(النور - ٣١)

لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون أن يكون جوهر القضية واضحا في الذهن فسوف نجد أن الحياة الطبيعية في زمننا(زمن المينى جيب . . والديكولتية ، والجابونيز ، والصدرالعريان ، والشعر المرسل والباروكات الذهب) أمر صعب والسير في شارع مثل عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا سيرا مطابقا لحروف الآية هو الامر العسير .
وهناك أكثر من نوع من النظر فما هو نوع غض البصر المقصود .

- لا بد من العودة الى جوهر التحريم لفهم الآية .
- والله حرم الضار الحبيث .

ومجرد ارسال النظر لا ضرر منه ولكن الضرر فيما يجري في القلب والعقل نتيجة امعان النظر الحبيث .
أن تتخطف العقل والقلب الشهوات فيفقد الانسان هدفه وينسى وجهته ويتشتت . . ويأخذ سبيله وراء ظهر عريان وينسى المشوار الذي جاء من أجله .
مثل هذا الانسان فقد حرته .
ولم تعد المسألة مسألة نظرة .
وانما أصبحت عبودية وذلا وتبعية وهبوطا من ذروة انسانية الى حالة أشبه بحالة كلب يتشمم . . وانسان لا يعرف لنفسه خلاصا من هاتين الساقين أو من هذا الظهر .
ها هنا قد وقع ضرر بالفعل .
وها هنا يبدو معنى الآية .
أن ينظر الانسان بشهواته لا بعينيه .
ولا ضرر في انسان تقوده عيناه في طريقه .
ولكن المهانة والضرر في انسان تقوده شهوته .

رحمن قد نرى وجهها فنهنف بالقلب اعجابا « الله » ونقصد
الحال الذي صور وليس المخلوق . فلا تكون هذه النظرة حلالا
فقط . . . وإنما تكتب لنا حسنة . . . وهي نظرة لا يقدر عليها
الا متصوف عابد يرى قدرة الله في كل شيء وابداع صنع الله
على وجه كل شيء .

« وصوركم فاحسن صوركم »

(مآثر - ٦٤)

وهو رجل قد غفل عن الخلق فلم يعد يرى الا الخالق .
والحال مختلف بالنسبة لرجل آخر ينظر فيفكر في اللهط .
ويسيل لعابه وتخرج عيناه من محاجرهما جموحا وشهوة ويفقد
السيطرة على نفسه وينسى المصلحة التي جاءت به الى المكان . . .
ونجري رجلاه المرتعشتان وراء اللحم الابيض . . . لا يعرف كيف
يحكمهما .

مثل هذه الحالة من الهبوط قد تنتهي بصاحبها الى صفة
على صدغه تفيقه ، أو الى محضر في بوليس الآداب ، أو الى
قصة تبدأ بدقائق لذيذة ثم تنتهي بحادث نشل ، أو الى
علاقة جنسية تنتهي الى مستشفى الحوض المرصود لعلاج
مرض سرى مزمن .

وحكمة الآية القرآنية واضحة في مثل هذا النوع من النظر .
والذوق السليم ينفر بالفطرة ويعف عن مثل هذا التحديق . . .
لانه ضرر . ولهذا أمر القرآن المرأة المؤمنة بأن تدنى عليها
حلبابها ابتعادا بها عن مزلق الاثارة والاستثارة .

وهنا نصل الى جوهر التحريم .

فالتحريم دائما لضرر .

والله أقام شريعته محبة ورحمة لا تسلطا وغطرسة .

فاذا انتفى الضرر . . . فأنت في المنطقة الحلال . . . مادمت لا

تضر نفسك ولا تضر غيرك .

وغضب البصر ليس فقط غض البصر عما يتعري من الجسد .
وانما هو أيضا غض للبصر عما في يد الناس من مال ونعمة ،
وهو الحياء والترفع عن النزول بالنفس الى مواطن الشهوة
والحسد والحقد والغيرة .

ومن اكبر الذنوب عند الله التعصب . . ان تتعصب لنفسك
أو عائلتك . . وان تميل مع الهوى . . وتأخذك حمية العنصرية
وكبرياء العرق والجنس .
والمتعصب انسان يعبد نفسه . . يعبد فهمه المحدود وليس
الله فهو مشرك .

وجوهر الدين هو أن تتجاوز نفسك وتتخطاها وتنكرها
وتكبح شهواتك وتلجم أهواءك وتحرر من أطماعك وتطلعاتك
وتخلص من غرورك وكبرك وعنادك . . فكل هذه أغلال ،
والدين يحرمها ليخلصك من أسرها .

وأبغض الحرام الى الله الشرك . . أو عبادة غير الله .
والشرك ليس فقط عبادة الاصنام فهذا لون قديم ساذج من
الشرك انتهى أمره .

والاصنام الآن هي غير اللات والعزى وهبل .
وأخطر الاصنام هي الاصنام المجردة وهي ما يعبد الآن في
كل مكان .

ان تتخذ نفسك صنما . . ان تعبد رأيك وهواك ومصالحتك
فلا يشغلك الا نفسك .

« أفرايت من اتخذ الهه هواه »

(الجالية - ٢٣)

وهذا هو اله اليوم الذي يحرق له البخور وتقدم له
القرابين من دم الآخرين .

وسوف نعود الى ميزان الحرام والحلال . ونقول : وما الضرر ؟
ما الضرر في أن يعبد الانسان نفسه ولا يرى غير مصلحته ؟

والضرر واضح بين .. فلن تكون حياة مثل هنا الانسان
حياة .

سوف يقضى حياته فى سجن من المرايا كلما تطلع الى جدار
لم ير فيه الا صورته .

سوف يكذب ويسرق ويقتل ويستغل .. ولن تصل الى
أذنيه آلام الآخرين لأنه لا يرى الا نفسه وما يكسب وما يربح
وما يرفع من عقار وما يقتنى من أرض وما يكسب من مال .

سوف تصبح نفسه حجابا بينه وبين الله وحجابا بينه وبين
الحقيقة ، وحجابا بينه وبين العدل .

وعن مثل هؤلاء الناس يقول القرآن .

« وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا
فأغشىناهم فهم لا يبصرون »

(يس - ٩)

وما السد الذى بين يديك ومن خلفك ومحيط بك بدرجة
تحول بينك وبين الابصار كأنه غشاوة .. الا نفسك .
ويقول فى سورة أخرى .

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »

(البلد - ١١ ، ١٢ ، ١٣)

يقول لك .. « وما أدراك ما العقبة » ليحضك على التساؤل
والتفكير فى تلك العقبة فأمرها يغمض عليك .. لأنها هى
نفسك ذاتها .. ولا عقبة أمامك سوى نفسك وعليك أن
تقتحمها لتستطيع أن تفعل أى خير فتفك رقبة من تستغل
وتستعبد .. ولن تستطيع أن تفك رقبة من تستعبد . الا إذا
فطنت الى استعباد نفسك لك وفككت عنك أغلالها .. فلن
تستطيع أن تحرر انسانا الا اذا بدأت فحررت نفسك أولا ..

وبعد ذلك سوف تجد أن أي خير سيصبح ممكناً . . سوف
تستطيع أن تحب وتعطي وتجوّد وتمنح .

ولهذا نقرأ في القرآن :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم
الجنة »

(التوبة - ١١١)

« فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم »

(البقرة - ٥٤)

بمعنى فاهزموا أنفسكم وانتصروا عليها .

وفي الانجيل يقول المسيح بنفس المعنى :

« من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من
أجل يمجدها ، لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر
نفسه » .

ويقول الله لداود :

« اقطع شهوتك وتحبب الى بمعادة نفسك . . ضعني بين
عينيك وانظر الى يبصر قلبك . . واعلم أنه ما اطمأن عبد الى
نفسه الا وكلته اليها فأهلكته »

ولهذا كان ذلك الشرك الحفى الذى يمارسه الانسان بعبادته
لنفسه هو منتهى الحرام وذرورة الخطيئة . . لأنه يحتوى على جميع
الخطايا الاخرى فى داخله ولأنه هلاك لا هلاك بعده .

وكل ما تعبد من دون الله شرك . . اذا كنت عبداً لنفسك
وهواك ومصالحتك فأنت مشرك . . واذا كنت عبداً لعصبية
العائلة أو القبيلة أو العنصر أو الجنس فأنت مشرك . . واذا
استعبدت فكرة مجردة أو نظرية فسدت عليك مسالك تفكيرك
فأصبحت ترفض مناقشة أى فكرة أخرى فانت راعع أمام صنم

وان كان صنما مجردا ومنحوتا من الفلسفة لا من المادة .
ولهذا اعتبر القرآن الشرك خطيئة لا تغتفر لأنه عمى للعين
والبصيرة والعقل وشلل لجميع المدارك وتوقف لنمو الروح
وتعطيل لها في هجرتها الى منبع نورها .

« ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

(النساء - ٤٨)

لان الشرك في الحقيقة أشبه بانقطاع الجبل السرى الذى
يفصم الصلة بين الجنين ومصدر حياته . . بين الانسان والله .
وماذا يحدث لو أن زهرة عباد الشمس انصرفت عن الشمس
وأعطت ظهرها لها واتجهت الى القمر مثلا . . انها ببساطة
تموت . . فالشمس هي مصدر حياتها . . وهى لا تعبده
الشمس ذلا . . وانما لأن الشمس حياتها .

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم
لا يحييكم »

(الانفال - ٢٤)

والعبادة حياة واستمداد للنور والحق .
والله أمر بالعبادة لأنه يعلم أن فيها حياتنا . . ولم يأمر بها
تسلطا وتجبيرا ولمجرد فرض أوامر .
ولهذه الاسباب حرم الله الحمر وما فى حكمها من المسكرات
والمغيبات لما فيها من أضرار .

وحرم القمار لما فيه من خسارة وتباغض وعدوان .
وحرم الزنا لأنه فوضى تختلط فيها الانساب . . وتخضع
النفوس للنزوات والشهوات والاهواء .
وأحل الزواج لأنه تنظيم ونظام ومستولية وسكينة قلب .
وحرم لحم الخنزير . . ونحن نعلم الآن أن حيوان الخنزير هو
مستودع فيروس الانفلونزا والدودة الشريطية ، وانه أغلظ
أنواع البروتين وأشدّها تعقيدا .

ولو القينا نظرة على الحيوانات آكلة الخضروات كالغزال والأرنب والحصان والجمال والدجاج والجمار للاحظنا أنها كلها رقيقة وديعة .. بينما الحيوانات آكلة اللحوم كالسباع والنمور والضباع والذئاب والثعالب والنسور والصقور .. كلها تشترك في صفات القسوة والوحشية والضراوة .
ولاشك أن هناك علاقة بين الاسراف في اللحم كطعام .. ونشأة صفات خاصة في النفس .. مثل الحدة والصرامة والقسوة .

ولأن لحم الخنزير هو أكثر اللحوم غلظة وأعقد البروتينات الحيوانية تركيباً فربما كان ضرره على آكله أبلغ من جميع اللحوم الأخرى .. والله يعلم ونحن لا نعلم .
والله هو العقل الكلي المحيط وهو لا يضع سنة بلا سبب .
ولقد أقام التشريع وحرم الحرام وأحل الحلال وفرض العبادة .. محبة منه ورحمة .

ويجب ألا تفوتنا هذه الحقيقة لحظة واحد .. فهي روح الناموس وقلب الشرائع .
ولذلك حرم الله السرقة وحرم القتل .

« من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »

(التوبة - ١٧)

لأن قتل الإنسان لأخيه الإنسان بلا ذنب هو خرق لجميع النواميس .. لهذا اعتبره الله قتلاً للناس جميعاً .
وحرم الانتحار .

« ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك غنواناً وظلماً فسوف نصليه نارا »

(النساء - ٢٩ ، ٣٠)

لأن الانتحار هو منتهى سوء الظن بالله والعمى عن رحمته واليأس من عدالته والحرق لنواميسه والجهل بآخرته ، وهو منتهى الظلم للنفس .

« **الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا** »

(التمح - ٦)

والله حرم الزنا لأن الزنا ضرر .

وهنا سوف يطلع علينا رأى مودرن باريسى متحرر يقول :
وما الضرر ؟ أى ضرر فى اثنين يتبادلان لذة بدون زواج لكن بتراض وراء جدران مغلقة وبعيدا عن العيون لا يكذبان على نفسيهما فى شىء . . . فما يفعلانه يقومان به حبا ووجدا وغراما .
ولا يؤذيان بعملهما مخلوقا . . . أين الضرر هنا ؟

ولنفهم الضرر لابد أن نضع الحب والجنس فى إطارهما الطبيعى حيث ارادتهما الطبيعة .

والطبيعة جعلت من العاطفة والجنس وسائل للتكاثر والابقاء على النوع وعمار الدنيا . . . جعلت منهما أدوات انتاج .

فاذا اجتمع رجل وامرأة واعتزلا ركنا يتبادلان اللذة بدون تفكير فى زواج أو بناء بيت . . . وانما لمجرد اختلاس متعة . . .
فانهما يحولان الحب والجنس من أدوات انتاج الى أدوات استهلاك ويستهلكان طاقة من أشرف الطاقات الحية خلقت لتبنى أمما وحضارات ويجعلان منها مجرد وسيلة الى ارتجافات جنسية .

وحيثما يجتمع رجلان على شذوذ جنسى . . . فانهما يقولان نفس الشىء ، سوف يقولان : اننا اجتمعنا على حب ورضى . . .
واننا لا نضر أحدا ، واننا نستمتع ولا نوذى أحدا .

والشذوذ واحد فى الحالين اذا أخذنا القوانين الكونية فى الاعتبار ونظرنا نظرة شاملة الى الموضوع . . . فكلما الحالين انحراف بالطاقة الطبيعية عن أهدافها لمجرد دقائق من

الارتجافات الجنسية .. والفرق هو فرق في درجة البشاعة .
وفي درجة المخالفة للنواميس الطبيعية .

والرجل والمرأة العاشقان المدلهان حبا وهوى ، اللذان
يرنمى الواحد منهما في حُضن الآخر .. ويتعلل كل منهما
بأنه صادق مع نفسه فيما يفعل .. هما في الحقيقة كاذبان .
لأن صدق الانسان مع نفسه لا يكون صدقا حقيقيا الا اذا
كان بالمنل صدقا مع الطبع والطبيعة .

وليكون الانسان صادقا مع نفسه لا بد أن يكون صادقا
مع طبيعته ومع النواميس الكونية العظيمة التي جاءت به الى
الدنيا ، والا انقسم وانقسم وانشق على نفسه وتحول الى جسد
في ناحية .. وروح في ناحية .

والتي تحب رجلا بحق .. لاتقول له : أريد أن أنام معك .
وانما تقول له : أريد أن أعيش معك العمر كله . أريدك أن
تكون أبا لأولادي وسقفا لبيتي وشرقا لاسمى ورفيقا مصاحبا
لرحلة حياتي كلها .

واذا لم تفعل هذا فانها تكذب على نفسها .. وهي
خاطئة وان ادعت لنفسها أنها جولييت .. بل ان الخاطئة التي
تبيع عرضها لحاجتها الى اللقمة سوف تتعلل بعذر الجوع ..
أما هي فقد ابتذلت أشرف ما أعطتها الطبيعة بدون دوافع سوى
تشنجات ورعشات عابرة وتلك الحكمة التي تبحث عن مهدي .
يريد الرجل أبا لأبنائها وسقفا لبيتها .. لامجرد دواء مؤقت
للحكمة .

والزنا اذا تحول الى عادة ثم الى سلوك ومنهج حياة يؤدي
الى التفسخ الكامل للكيان .. والى انفصام الشخصية ..
فيصبح الجسد في ناحية والقلب في ناحية .. والروح في
ناحية .. وبهذا يتم تخريب الفطرة ، وهذا هو الضرر غاية
الضرر .. ولهذا نقرأ في الاحصائيات أن أعلى نسبة للجنون

والانتحار تحدث في السويد رغم السعادة الجنسية وعدم الكبت والتحلل غاية التحلل .. والسبب هو ذلك الانقسام الذي يحدث للانسان المتحلل في أعماق روحه فيفقد السلام الداخلى الى الابد .

وهكذا تأتي التعاليم الدينية لحكمة وأسباب لا لمجرد رغبة الله في التسلط على خلقه وانما محبة ورحمة وتنبئها لفائدة .
ويحرم الدين الزواج بين الاخوات ، وبين الام وابنتها ، والاب وابنته لأنه يريد أن تنمو في الاسرة ألوان أخرى من العاطفة غير الشهوة .. كالامومة والابوة والاخوة والمودة .. وأن يكون الرباط الاسرى هو التراحم (لأنه هو الرباط الوحيد الباقي) .. أما ضرام الشهوات فهو يضرر مع الغيرة والرغبة في التملك فيقتتل الاخوة على أختهم وتتفجر الاسرة من داخلها وتنهيار .

لم يكره الله للانسان الا كل ما هو كرهه بالفعل .. ولم يحب له الا كل ما هو محبوب .

ولذا جعل الطلاق مكروها لكنه ممكن اذا استحالت الحياة .
وجعل الكذب كبيرة الكبائر .

« كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »

(الصف - ٣)

والكذب على الله غاية الاثم .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا »

(الأنعام - ٢١ ، ٩٣)

فيكون ادعاء النبوة كذبا والتحرير في الكتب المقدسة زعما بان آيات نزلت وهي لم تنزل .. هو منتهى الحرام .. لأنه منتهى الاضرار والتضليل للناس .

هذه هي الشريعة وهذا روحها .. ان الله أحل الطيبات

وحرّم الخبائث ، واذا تطهرت فطرتنا فسوف نحب لنفوسنا
ما يحب لها الله بدون جهد وبدون مشقة •
ولهذا يزول التناقض في قلب المؤمن بين الله وشريعته وبين
ما تمليه عاطفته الخاصة ويرغب فيه عقله •• فاذا بما يريد
لنفسه هو ما يريد الله له •• وما يتمناه لنفسه هو ما يتمناه
الله له •

ولهذا يتوجه ابراهيم بالدعاء قائلا :

« رب اجعلني مقيم الصلاة »

(ابراهيم - ٤٠)

فيطلب من الله ما يطلبه الله منه •
وهذا غاية الايمان والثقة ومنتهى الحب للشريعة •• حتى
لتصبح الشريعة والرغبة شيئا واحدا •
ولا تعود للانسان رغبة سوى ما يرغب الله •
وهذا درب الدين وصلوا •
يقول الله في حديث قدسي :

« عبدي اطعني اجعلك ربانيا يدك يدي ولسانك لساني
وبصرك بصري وارادتك ارادتي ورغبتك رغبتى »
وهؤلاء هم الانبياء والاولياء والمقربون الذين امدهم الله
باسباب علمه وقدرته •

أَسْمَاءُ اللَّهِ

مستحيل معرفة ذات الله وكنهه . ومستحيل رؤيته لعين بشرية . . لان العين البشرية لا تدرك الا كل ما هو محدود متناه في المكان محصور بالزمان . . والله متعال على المكان متعال على الزمان . . ليس كمثله شيء .
وفي آيات بديعة الايقاع يقدم لنا القرآن هذه الحقيقة الازلية .

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . . »

(الرعد - ٩)

« يجادلون في الله وهو شديد المحال »

(الرعد - ١٣)

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في
البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في
قلبات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين »

(الانعام - ٥٩)

« والله يسجد من في السماوات والارض طوعا وكرها »

(الرعد - ١٥)

الكل يسجد لله . . من لا يسجد طوعا يسجد كرها .
 لان الكل يجرى على سنن الله الطبيعية التي اقامها ويخضع
 لقوانينه التي رسمها .
 قلب المؤمن وقلب الكافر كلاهما خاضع للقوانين الفسيولوجية
 التي ابدعها الخالق . . كلاهما ينبض خاضعا لنفس القوانين .
 وكذلك تنبض كل خلية في كل جسد .
 وفي ذلك يقول القرآن :

« أقفر دين الله يبعون وله أسلم من في السموات
والارض طوعا وكرها واليه يرجعون »

(آل عمران - ٨٣)

الكل أسلم الأمر للقوانين الالهية التي تجرى على سننها
 الحياة .

ونعرف الآن الكثير من هذه القوانين مثل :
 قانون الضغط الازموزي
 وقانون التوتر السطحي
 وتماسك العمود المائي
 والتوازن الكهربائي والأيوني في المحاليل .
 وقانون التفاضل الكيميائي بين هورمون وهورمون فيكون
 الواحد منهما حاكما على الآخر .
 وقانون رفض الفراغ .
 وقانون الفعل ورد الفعل .
 والكثير غيرها مما تجرى الحياة على وفاقها ويطيعها كل
 مخلوق ويسلم لها طوعا وكرها .
 الله وقوانينه قائم على كل شيء من الذرة الى الفلك . . به
 وبقوانينه تقوم الحياة .
 فهو « قيوم »
 هو « الحي » الذي به الحياة

وهكذا يقدم لنا القرآن أسماء الله وصفاته وأفعاله في
تساييح جميلة .

« هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن
المهيمن العزيز الجبار المتكبر »

(العشر - ٢٣)

« هو الله الخالق البارئ المصور »

(العشر - ٢٤)

ويتكلم الله عن نفسه بضمير الجمع .

« ونحن أقرب اليه من حبل الوريد »

(قى - ١٦)

وحبل الوريد هو العرق الذى يجرى به الدم فى الرقبة،
فهو أقرب الينا من الدم فى أجسادنا .

وهذا منتهى القرب .

والمتصوفه يقولون أنه يبعد عن ادراكنا لفرط قربه ،
ويخفى علينا لفرط ظهوره ، ويشرحون هذا بقولهم أننا عرفنا
نور الشمس بغروبه . . . وأدركنا ألوان الاشياء من النور وليس
من الاشياء . . . فهي زرقاء وحمراء وخضراء لانها تمتص أمواجاً
مختلفة من النور . . . وبالظل عرفنا النور . . . والله ليس له
ضد ليعرف به ، ونور الله مشرق أبدا ولا ظل له . . . ولذلك
نقول أن الله احتجب عنا لفرط اشراقه ودوامه .

ونحن نولد فى هذه الحضرة الربانية ونحن فاقدو العقل
ثم تكبر فتشغلنا الشهوة مع ظهور العقل ثم يشغلنا الجاه
والرياسة والدنيا ثم ننضح فيشغلنا العقل نفسه . . . وطول
هذا الوقت تصبح الحضرة الربانية عرفاً . وتصبح عجائب
الله فى السماوات والارض وفى أنفسنا عادة .

ويقول الشاعر الصوفى :

وكيف يعرف من بالعرف قد سترنا .
استغراقنا في الأسباب يخفى عنا المسبب . . كمن يصله
كتاب مؤلف فينشغل بالبحث في نوع الحبر ونوع الورق وينط
المطبعة ، وينسى الكلام والمعاني أو ينشغل بالكلام وينسى مبدعه .
ومن شأن الدوام أن يخفى عنا الحقيقة - فدوام حركة المصعد
يخفى عنا حركته . لاندرك أنه كان يتحرك الا لحظة وقوفه .
وبالمثل دوام الله أخفى عنا حضوره وشدة قربه أبعده عن
الادراك وفرط ظهوره أخفاه . . فهو أخفى من كل خفى لانه
أظهر من كل ظاهر . . لا يحتجب عنا الا بحجاب وهمنا . .
وهم شهواتنا الذي أسدلناه على أعيننا .
ويقول ابن عطاء الله السكندري :

لو حجبه شيء لستره . . ولو كان له ساتر لكان لوجوده
حاصر . وتعالى الله وتقدس عن أن يكون هناك من يحده
ويحصره .

وبالمثل لا يرى الواحد منا سواد عينيه لشدة قربه منه .
والله عند الصوفية ليس في حاجة الى اثبات . . وانما الدنيا
هي التي تغدو محل شك وهي التي تصبح في حاجة الى
اثبات ، وهم يثبتونها بالله . فهي موجودة به وهو لا يوجد بها .
والذين يطلبون الله بالبرهان هم أهل الحجاب . الذين
يشهدون الكون ولا يشهدون المكون .

ويقول ابن عطاء متسائلا :

متى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون أسباب
الدنيا موصلة اليه ؟ .

وهم يطلبون القرب من الله حبا وليس خوفا من نار أو طلبا
لجنة . . ويقولون أنهم في هجرة دائمة الى الله . من الاكوان
الى المكون . . وهي غير الهجرة المعروفة على الارض من مكان
لآخر . . وهذه عندهم أشبه بدوران حمار الرحي يبرح المكان

ليعود اليه أما الهجرة الحقيقية فهي الانتقال من وطن الملك
الى وطن الملكوت ومن وطن الحس الى وطن المعنى .
والمتصوفة أهل أطوار وأحوال ولهم آراء طريفة لها عمقها
ودلالته فهم يقولون لك أن المعصية تكون أفضل أحيانا من
الطاعة . . قرب معصية تؤدي الى الرهبة من الله والى النذل
والانكسار . . وطاعة تؤدي الى الخيلاء والاعتزاز . . وهكذا
يصبح العاصي أكثر قربا وأدبا مع الله من المطيع .
ومن رأى طاعته واختال بها ورأى حسناته واطمأن اليها
فان رؤيته لها دليل على أنها ليست حسنات . . لان الحسنات
ترفع الى الله فور حدوثها والكلمة الطيبة تصعد الى الله فلا
يراهها صاحبها . . فالصالح الحقيقي لا يشعر بأفعاله الصالحة .
وانما هو في رهبة من الله على الدوام . . وهذا تفسيرهم
للآية القرآنية .

« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »

(فاطر - ١٠)

وهم يقولون لك ، أن الشكر ليس كلمة « الحمد لله » وانما
الشكر على العطاء ألا تعصى به من أعطاك فتتخذ من نعمته
وسيلة الى أذى نفسك وأذى الآخرين . أن الشكر فعل وليس
كلمة .

والمتصوف واليوجي والراهب كلهم على درب واحد
وأصحاب منطلق واحد وأسلوب واحد في الحياة هو الزهد .
وهم يرون أن الشهوة حجاب والهوى حجاب وحب الدنيا
حجاب . . كذلك العلم عند عالم مغرور مختال بعلمه من أشد
الحجب . . وكذلك العبادة بالنسبة لعابد مزهو بعبادته
والصلاح بالنسبة لصالح متفاخر بصلاحه حجاب .
وهكذا يكون العلم أحيانا حجابا على المعلوم والعبادة حجابا
على المعبود والصلاح حجابا على رؤية المصلح .

ولهذا يفسرون كلام القرآن عن النبي :

« **مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق** »

(الفرقان - ٧)

بأنه الستر الالهى ستر به سر النبوة فى ثوب بشرى عادى
أرجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. حتى لا يتذلل السر
بالاظهار والاشتهار .

واليوجى والراهب والصوفى المسلم يطلبون القرب والوصل
بنفس الاسلوب .. بالتسابيح .. فيدعون الله بأسمائه :

« **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** »

(الاعراف - ١٨٠)

وهناك يوجا خاصة بالتسابيح اسمها « المانترايوجا » من
كلمة « مانترام » الهندية أى تسبيحه .

ومن التسابيح السنسكرىتية أن ينلو اليوجى فى خشوع
كلمة « رهيم .. رهام » . آلاف المرات .. وهى كلمات
تقابل .. رحيم .. رحمن .. عندنا وهى من أسماء الله
بالسنسكرىتية .

ويضع اليوجى فى عنقه مسابح طويلة من ألف حبة .
والتسبيح الحقيقى فى نظر الغزالي لا يكون بمسبحة
ولا يكون باللسان وإنما بالقلب .. فى الخلوة والسكون
والصمت . مع دق القلب تتلو الروح فى صمت وبدون
صوت .. أسماء الله .

« **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر
من القول** »

(الاعراف - ٢٠٥)

وهى أرقى درجات التصوف ولا يستطيع بلوغها الا من بلغ

سكون النفس وصفاء الروح وامتلاك القدرة على حصر الانتباه والتركيز والانصراف الى التأمل بجماع القلب والهمة وقويت عزيمته فقهر شهواته وشواغله الدنيوية وصعد درب السالكين الى الله . وهو صعود أشق من الصعود الى القمر . لانه يقوم على الجهاد الهائل مع النفس .

وأول خطوة للمتصوف أن يتغلب على نفسه . فالنفس حجاب ، والعقل حجاب ، والعرف حجاب ، وكل هذه الاشياء هي جلد الانسان الخارجي وليست حقيقته . . ولا بد من تجاوز هذه الاسوار حتى يستشرف المتصوف على روحه في بكارتها ويضع قدمه على عتبتها ليرى مالا عين رأت ويسمع مالا اذن سمعت .

• والتصوف ادراك عن طريق المدارك العالية .

• والمتصوف عارف .

ولكن هدف معرفته هو الله في كماله . . وليس طلب المعارف الجزئية كالطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ .

انه يسعى الى معرفة كلية بحاسه مختلفة ووسيلة مختلفة عن وسيلة المنطق وأدوات العلم الوضعي المألوفة . ولهذا كانت أول عقبة أمام المتصوف هي نفسه ذاتها ومألوف عاداته .

« فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة »

(البلد - ١٢٠١١)

وفي بعض أخبار داود انه قال « يارب أين أجـدك » فقال « اترك نفسك وتعال . . غـب عنها تجدني » وفي هذا يفسر بعض المتصوفة كلام الله لموسى في القرآن:

صالحه

النفوس كبريات

« فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى »

(طه - ١٢)

ان المقصود بالنعلين هما النفس والجسد . . هوى النفس وملذات الجسد . . فلا لقاء بالله الا بعد أن يخلع الانسان النعلين : نفسه وجسده بالموت أو بالزهد .
والله يصورهما كنعلين لانهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة وعن طريقهما نزلت من سماواتها الى الارض .

ولهذا يبادر المتصوف بأن يخلع النعلين ليخطو أول خطوة في الوادي المقدس .

والقرآن يخبرنا أنه بعد الموت والبعث يتم الشهود فنرى الله ونلقاه .

« واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين »

(البقرة - ٢٢٣)

« وكلهم آتية يوم القيامة فردا »

(مريم - ٩٥)

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

(الانشقاق - ٦)

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة »

(الانعام - ٩٤)

« وجاء ربك والملك صفا صفا »

(الفجر - ٢٢)

« وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما »

(طه - ١١١)

« ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم »

(السجدة - ١٢)

« تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم اجرا كريما »

(الاحزاب - ٤٤)

« يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم
ويحسبون أنهم على شيء الا أنهم هم الكاذبون »

(المجادلة - ١٨)

« هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام
والملائكة وقضى الامر »

(البقرة - ٢١٠)

وقد أنكرت بعض الفرق الاسلامية امكانية رؤية الله في
الآخرة وفسرت هذه الآيات بأنها رموز واشارات ومجاز لا
حقيقة . وأنها تفهم على باطنها لا على ظاهرها .

وكانت حجتها أن العين لا ترى الا المحدود المتناهي في الزمن
والمكان ، والله لا محدود ولا متناه ومتعال على الزمان
والمكان وبالتالي لا يمكن لعين أن تراه . . . وهي حجة
واهية وتصور مادي دنيوي . . . فهم يتصورون أن الروح
سوف تبصر بعين مادية في الآخرة وستكون لها حدقة وأجفان
وستظل ملابسة للزمان والمكان المعروف في الدنيا . وهو أمر
ينكره القرآن فيقول عن النشأة الاخرى « وينشئكم فيما
لا تعلمون » أي أنه سوف ينشئنا نشأة مختلفة تماما عن كل
ما نعلم . . .

ولا غرابة في أن يكون للروح بصر شامل يدرك اللامحدود
. . . وأن ترى الله كما يراه الملائكة .

والقرآن يعرفنا بتسع وتسعين اسما من أسماء الله
الحسنى . بعض هذه الاسماء ما يختص الله به نفسه مثل

اسم « الله » وأسماء أخرى مثل الكريم والحليم والرعوف والودود نطلقها على أنفسنا فنقول عن الواحد منا أنه كريم وحليم ورعوف وودود ولكن لا يصح أن نقول أنه « الله » لأنه اسم علم على الذات الإلهية بينما الأسماء الأخرى أسماء للصفات والأفعال الإلهية ، والذات الإلهية سر مطلق لم يسر لبشر أن يخوض فيه . . أما الصفات والأفعال فلنا أن نتأمل فيها .

والله يجيب من يدعوه بأسمائه .

« ادعوني أستجب لكم »

(غافر - ٦٠)

« واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان »

(البقرة - ١٨٦)

وهي حقيقة . ولكن الوسيلة إليها ليست مجرد شقشقة اللسان بأن نقول يارب . . فكل واحد يقول يارب . . بعقل فارغ تماما عن مدلول الكلمة . . انما النداء على الله أمر جليل . . وهو صميم التصوف . . بل هو التصوف ذاته . . ولا يقدر عليه الا أصحاب القلوب والبصائر والهمم العالية .

وهذا لا يعنى أنه لا يسد أن تكون درويشا لتدعو الله فيستجيب . . وانما طهر القلب وخلص الضمير والتوجه بجمع الهمة هو الشرط .

أما الذى يقول . . يارب ارزقنى مائة جنيه . . فهو رجل يمزح مزاحا سخيفا . . فهذه امور يمكن أن يسعى إليها بأسبابها الدنيوية المعروفة وليس طريقها التصوف . . وكشك سجائر على ناصية عماد الدين يحل المشكلة .

١ والمتصوف متجرد . . وهو قد نفى المطلب الدنيوى من باله لأنه يريد مطلبا أعظم .

والمتصوف لا يسأل .. وهو يمرض فلا يسأل الله الشفاء
ويقول في أدب .. كيف أجعل لنفسي ارادة الى جانب ارادة
الله .. فأسأله ما لم يفعل .. وأنا الذى لا أعلم ما ينفعنى
مما يضرنى .. كيف يعترض الذى لا يعلم على الذى يعلم ..
ومن يدرينى أن مرضى وآلمى ليست الوسيلة الى خلاصى .
وهو من باب الادب لا يطلب من الله الا ما يطلبه الله منه ..
فيقول كما قال النبى ابراهيم :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة »

(ابراهيم - ٤٠)

فهو يجعل من ارادة الله ارادته الخاصة ومسعاها .. حبا
واحتراما لحالقه .
والحب هدف المتصوف الاسمى .
ليس لى فى الجنان والنار حظ .
أنا لا أبتغى بحبى بديلا .
وهو لا يرى شيئا الا رأى الله فيه ، والله عنده ليس فى حاجة
الى عبادتنا ، وهو يفسر الآية القرآنية :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

(الناريات - ٥٦)

ان معناها :
ما خلقت الجن والانس الا ليعرفون .
فلا يمكن أن تتم عبادة بدون معرفة ولا يمكنك أن تعبد
ما لا تعرف .. انها لا تكون عبادة .
وأنت لا تكون عابدا لله الا اذا كنت عارفا بالله .
ولا يمكن أن تعرف الله الا اذا عرفت نفسك أولا ثم تجاوزتها
مهاجرا الى خالقها .

• وتتضمن الآية جميع هذه المعارف •

فإن الله خلق الإنسان ليعرف نفسه ثم يعرف ربه •• فيتم بذلك للإنسان جلاء البصيرة الكامل والارتقاء الحقيقي عبر صراع الجسد والروح •

إنه الارتقاء والتكامل من خلال معركة دموية بين طبيعة التراب وطبيعة الروح •

« لقد خلقنا الإنسان في كبد »

(البلد - ٤)

خلق الله الإنسان ليكابد هذه المعركة •• ووعدته بميراث السموات والأرض إذا انتصر •

والعبودية للخالق هي دائما منتهى الحرية أمام الخلق •
والذل للخالق منتهى الكرامة أمام الخلق •

فالعبودية لله تعنى أولا التحرر من استعباد المال واستعباد الشهوة واستعباد المنصب واستعباد الرغبة •

ومن عبد الله لا يعبد الجماهير والغوغاء طلبا للمنزلة عندها •

لا تكون عبدا لله إلا إذا أفرغت قلبك من كل هذه العبوديات وأسقطت من حسابك كل ما هو غير الله ليكون قلبك خالصا لخالقك •

ثم إنك لا تصل إلى أعلى مرحلة من العبادة إلا إذا استطعت أن تفنى عن نفسك وتفنى عن رغباتك •• فيصبح ما تريده لنفسك هو ما يريدك الله لك •• كادت ارادتك أن تكون ارادة الله المطلقة •• وهي ذروة الحرية والخلوص من كل العبوديات •
والمتصوف إنسان مفكر متأمل شفيف الحس نافذ البصر •
يقول لك المتصوف •

الصاحب الذي يدوم لك هو الذي يصحبك وهو عالم بعيبك وليس ذلك إلا الهك وخالقك العالم بخفاياك المطلع على سررك

وعلايتك .. ان عصيته سترك .. وان اعتذرت اليه قبل
عذرك .

ويقول لك :

- اذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه .
- ان أردت ألا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم .
- اذا ادعيت لنفسك التواضع فأنت المتكبر حقا .

ان كنت لا تعرف الله الا فى النعمة فأنت لا تعبه وانما تعبد
نفسك .

خلق لك الله الدنيا لتكون فى خدمتك فتحولت أنت الى
خدمتها .. أرادك ملكا وأردت لنفسك أن تكون مملوكا .

ويقول للفقهاء :

أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت
تقولون حدثنا فلان عن فلان عن فلان وكلهم موتى .. والواهب
الحق علام الغيوب أقرب اليكم من جبل الوريد وهو معكم أينما
كنتم .. ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم . فكيف
تتركونه وتأخذون العلم عن سواه .

ولهذا يقول المتصوفة عن علمهم بأنه علم لدنى .. من لدن
الله .. لا علم نقلى من الكتب .

ويصفون أنفسهم بأنهم أهل الحضرة .. ويأخذون أنفسهم
بالرياضات الروحية العنيفة والصيام والعبادة المتصلة الى درجة
افناء الذات فى الله .

وسيلتهم الى الله اسماؤه الحسنى ومحبته القصوى التى تملأ
كل ذرة من القلب فلا يعود لهم شاغل الا ذكره .. لا يرون
شيئا الا رأوا الله فيه .

هؤلاء هم أهل السر والقرب والشهود الأولياء الصالحون
حقا .

• وهم ندرة شحيحة •

إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا لانهم لا يعلنون
عن أنفسهم ويخفي الواحد منهم كراماته كما يخفى عورته لأنها
السر الذي بينه وبين ربه وعلامة المحبة والخصوصية والقرب •
وما بين المحب والمحبوب لا يصح افشاؤه وابتذاله •
وقانونهم •

• الذي يتكلم لا يعرف •

• والذي يعرف لا يتكلم •

وهم ليسوا دراويش الأرصفة ولا شحاذاي المساجد ولا
المجاذيب ولا الثرثارين ولا المدعين ولا محترفي الشعوذات •
انما هم الاتقياء الاخفياء • يقول عنهم الله في حديثه القدسي :
« أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري »

ويقول في حديث آخر عن هذه الخصوصية :

« لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن »
وفي حديث ثالث :

« عبدي أطعني أجعلك ربانيا يدك يدي ولسانك لساني
وبصرك بصري »

• وما أندر هؤلاء الربانيين في هذا الزمان •

رَبِّ وَاحِدٌ وَدِينٌ وَاحِدٌ

يقرر القرآن بعبارات قاطعة محددة وآيات لا تقبل التأويل
وحدة الله المطلقة وأنه لا موجود بحق سواه وان كل ما عداه باطل
زائل .

وينزل الوحي على محمد ليقول في كلمات باترة حاسمة :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك »

(محمد - ١٩)

« كل شيء هالك إلا وجهه »

(القصص - ٨٨)

ويقول المسيح في الانجيل :

« لا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد هو الذي في
السموات »

« اذهب يا شيطان أنه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده

تعبد »

وتقول التوراة :

« العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع . كل

تعبك الذي تعبته نحت الشمس تتركه للذي يأتي بعدك . كما يموت الحكيم يموت الجاهل . . باطل الإباطيل الكل باطل . . كما انك لا تعلم من أين تأتي الريح ولا كيف حال الجنين في بطن الحبل كذلك لا تعلم أفعال الله الذي يصنع الجميع .
ونصف التوراة الله بأنه واحد غير متجسد وغير مركب لا يأكل ولا ينام ولا يعترية نقص .

وجميع الكتب السماوية من توراة وانجيل وقرآن هي في صورتها التي نزلت بها كتب توحيد تأمر بالتوحيد .
ويقرر القرآن في وضوح لا لبس فيه أن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية . . على هدى . . وأن لهم أجرهم يوم القيامة . . وأكثر من ذلك يقرر أنه حتى الذين عبدوا الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله وهم « الصابئون » أمثال اخناتون هم أيضا على هدى ولهم أجر ومغفرة .

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

(البقرة - ٦٢)

وبذكر القرآن التناحر بين الاديان على أنه جهل :

« وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »

(البقرة - ١١٣)

وما فهم هؤلاء المختلفون حقيقة الدين .
فالدين في حقيقته دين واحد

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك
وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين
ولا تتفرقوا فيه »

(الثورى - ١٣)

انه دين واحد من ناحية العقيدة . . . وقد نزلت شرائع هذا
الدين الواحد على مراحل (اختلاف الاديان هو اختلاف من
ناحية الشرائع فقط)

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

(المائدة - ٤٨)

ويقول المسيح :

« ما جئت لأنقض الناموس بل لأكملة »

انها مراحل . . . فى كل مرحلة يبعث الله نبيها المناسب
وينزل من الشرائع ما يلائم تطور النفس البشرية فى تلك
المرحلة . . .

فاذا ارتقت الانسانية وتقدمت وتخطت تلك المرحلة بعث
بالرسول الذى يكمل الناموس ليواكب التقدم الروحى
الحادث .

فى زمن موسى وهو عصر الفراعنة عصر العنف والعنفوان
والجبروت ينزل ناموس العدالة على موسى .

والعدالة الملائمة لمثل ذلك العصر هى رد الضربة بمثلها . . .
العين بالعين والسن بالسن .

فاذا ارتقى الانسان خطوة . . . نزل ناموس الحب . . . وجاء
المسيح ليقول فى الانجيل :

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم:
لا تقاوموا الشر . . . بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له
الأيسر أيضا . . . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ،

وتصطدم تلك الاخلاقيات الرفيعة بجبروت المتجبرين
 و صلف الظالمين ويحدث ما يحدث للمسيح وللمسيحيين من
 اضطهاد و حرق و شنق . . . وتمتحن المحبة أسوأ امتحان . .
 ويرى فيها كل ظالم وجبار ضعفا وتخاذلا يستغله لحسابه
 ليسحق كل من يتكلم باسمها .
 وكان لابد أن تنزل شريعة محمد لتجمع بين ناموس العدالة
 وناموس الحب في ناموس واحد هو ناموس الرحمة .
 وجاء القرآن ليقول :

« وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم
 لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله »

(النحل - ١٢٦ - ١٢٧)

وبهذا جعل الدفاع عن النفس باستعمال القوة أمرا مشروعا
 بعد أن كان في الانجيل ممنوعا . . حتى لا تجرد النفوس
 الجبارة مطمعا في ضعف المؤمنين وحتى يكون للحق سند من
 قوة في أزمان يعلم الله بها ويعلم أنها ستكون أزمانا يسود فيها
 منطق القوة وحكم الاقوياء .
 ولكن مع مشروعية الدفاع عن النفس فإنه فضل الصبر
 وتحمل الاذى على التعجيل بانتقام ثم في آخر الآية أمر
 بالصبر أمرا « واصبر وما صبرك الا بالله » و وعد بأن يقوى
 الصابر على صبره وأكثر من هذا كان القرآن صريحا في تفضيل
 المحبة . . ورد الاساءة بالاحسان وأمر بذلك حرفيا .

« ادفع بالتي هي احسن السيئة »

(المؤمنون - ٩٦)

هذا التوليف الدقيق الجامع بين العدل والحب في مزاج
 رحيم مشفق كان هو المزاج المناسب لما تبقى للانسان من
 أحقاب عمره على الارض .

وقد علم الله أنه لن يحدث تطور روهى بعد ذلك . . وان
الانسان لن يتطور الا فى أدواته فيصنع العربات والقطارات
والطائرات والصواريخ والعلوم الوضعية والمعارف العقلية دون
أن يتقدم خطوة واحدة فى روهه فختتم الرسالات بمحمد . .
ولم يبق بعد ذلك شىء يقال فى باب العقيدة الروحية على
الاقل .

وبقى علينا نحن أن نفهم ما قيل ، ولماذا قيل . . ثم لماذا
انقطعت الرسالات عن النزول ولم يعد يقال شىء .
لأن لا شىء جد فى روح الانسان على كثرة ماجد فى عقله
ومعارفه وحياته المدنية .

الدين اذن واحد كما أن الله واحد .
والذين اختلفوا لم يفهموا حقيقة نزول الالواح والوصايا
والشرائع على مراحل حسب تطور الروح الانسانية .

ولكن الله فى القرآن يعود فيوضح ويحدد بطريقة أكثر
حسما فيقدم لنا الانبياء فى تعاقبهم وكأنهم رسل دين واحد
فيقول بلسان نوح يخاطب الكافرين :

**« فما سألتكم من أجر أن أجرى الا على الله وامرت أن
أكون من المسلمين »**

(يونس - ٧٢)

ثم يروى عن ابراهيم وابنه وهما بينان الكعبة :

**« واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا
تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين
لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا
انك أنت التواب الرحيم »**

(البقرة - ١٢٧ - ١٢٨)

ثم موسى .

« وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا
ان كنتم مسلمين »

(يونس - ٨٤)

ثم فرعون لحظة موته غريقا يقول :

« آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا
من المسلمين »

(يونس - ٩٠)

ويوسف يقول حينما نصره الله وجمعه على اخوته :

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث
فاطر السماوات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة
توفني مسلما والحقني بالصالحين »

(يوسف - ١٠١)

ويقول السحرة الذين آمنوا لموسى :

« ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين »

(الأعراف - ١٢٦)

ثم يروى عن عيسى والحواريين :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله
قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد باننا
مسلمون »

(آل عمران - ٥٢)

انه يقول عن المسيح انه مسلم والحواريون مسلمون .
وموسى مسلم والسحرة الذين آمنوا له قد اسلموا وفرعون
وهو يتوب لحظة الموت اسلم ويوسف مسلم وابراهيم مسلم
واسماعيل مسلم ونوح مسلم .

الكل اسلم ..

بمعنى أسلم الامر لله اذ أدرك أنه لا موجود بحق سواه
ولا مقدر للاقدار ومالك للملك سواه .

ولكن اختيار لفظ واحد في الكل أمر له مغزى ومراد بذاته
لحكمة .. هي عدم التفريق بين دين ودين .

ثم يمضى لاكثر من ذلك فيأمر بعدم التفريق بين رسول
ورسول وعدم تفضيل رسول على رسول .. فيقول عن
المؤمنين في سورة البقرة :

**« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق
بين أحد من رسله »**

(البقرة - ٢٨٥)

لا معنى للتفرقة بين رسول ورسول ، فالمسيحي الصالح
مسلم لله .. اذا آمن بجميع الرسل والكتب وبالآخرة وبأن
الله واحد .

والأديان في أصلها العقائدي دين واحد وما هي الا مراحل
نزلت فيها النواميس على وفاق الطبيعة البشرية وتطورها .

**« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في
شيء انما أمرهم الى الله »**

(الانعام - ١٥٩)

**« ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين
الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون
أن يتخلوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا »**

(النساء - ١٥٠-١٥١)

لأن الايمان لا يتجزأ ولا يمكن أن تؤمن بكتاب انزله الله
وتكفر بكتاب آخر وتكون مسلما .. لأن الاسلام هو اسلام

الوجه والامر لله في كل ما أتى به من رسل وكلمات فتكون
مؤمنا موحدًا مصداقًا لله في كل ما قال لا ناقدا .

والتصوفون المسلمون لهم طريقة جميلة في التعبير عن
هذه الوحدة بين الأديان فيقول الواحد منهم عن زميله ان له
قدما عيسوية . . وعن آخر ان له قدما موسوية وعن ثالث أن
له قدما محمدية . . بمعنى أنه يجد طبيعته ومزاجه الروحي
في الشريعة العيسوية فلا يتزوج ويعيش راهبًا . . أو في
الشريعة الموسوية الحامية فلا يستطيع أن يكتب انفعالاته ، أو
في الشريعة المحمدية فهو وسط دائما معقول دائما في
انفعالاته .

يقولون هذا عن بعضهم بعضا مع أنهم جميعا مسلمون .
وهم بذلك قد فهموا اختلاف الأديان فهما أعمق .
لم يفهموها فقط على أنها اختلاف مراحل تاريخية .
وانما فهموها أيضا على أنها اختلاف في المزاج الروحي قد
يوجد في الجماعة الواحدة .
بهذه الرحابة في النظرة .

وبهذا الأفق المتسع يجب أن نفهم تعدد الأديان . . لنتخطى
التعصب ونشعر بالأديان كلها ديننا واحدا ، أنزله الإله الواحد
الرحيم .

والله قد فتح باب رحمته لكل من جاهد ، وإذا كنت زنجيا في
الادغال ولم تتيسر لك رسالة محمد ولم يصل اليك القرآن
ولم يصلك من الكتب السماوية الا الانجيل مترجما بلغتك
الزنجية وتوسلت الى الله به فانت مقبول عند الله . . وإذا
كنت من الاسكيمو ولم يصلك أي كتاب سماوي ولكنك
جاهدت وادركت وحدانية الله من آياته في السماء . . من
القمر والنجوم التي خلقها . . وتوسلت الى الله بها (كما فعل

الصائبون امثال اخناقون) فانت مقبول . . وكل من جاهد
واستخدم كل ما وجد تحت يده من وسائل في هجرته الى الله
فهو مقبول . . وجنة الله مفتوحة الابواب لكل من سعى اليه
مجاهدا ومخلصا .



وقد تجددت بعد محمد دعوى النبوات .
وكان يظهر بين وقت وآخر من يدعى أنه نبي مرسل بعد
محمد . وأنه جاء بكتاب . . وانتهى معظم هؤلاء الانبياء الى
المشائق . . وانتهت كتبهم الى النسيان .
وكان التحدى الذى يواجهه أى نبي يدعى النبوة هو أن
يأتى بما يدل على هذه الصلة المزعومة بالله . . عالم الغيب
والشهادة .

وفى العرف والقانون أن البينة على من ادعى .
من ادعى أنه مبعوث من عند عالم الغيب فعليه بداهة أن
يأتينا بعلم جديد من هذا الغيب ونبأ صادق من هذا الغيب .
ومن يرسله الله للبشر فلا بد أن يعطيه بداهة سلطانا على
هؤلاء البشر أو سلطانا على قوانينهم الطبيعية فيأتى لهم
بخوارق تسكتهم . . أو يدعم بعثته بكتاب معجز تخشع له
القلوب والآذان وتحار فيه العقول والالباب . . وهو الامر
المستحيل بالنسبة لهؤلاء الادعاء .

وخلصا من هذا المأزق الازلى كانت خطة هؤلاء المدعين هي
هدم دعامة النبوة من أساسها بانكار المعجزة وانكار الغيب
حتى لا تبقى وسيلة لامتحان رسالتهم الكاذبة وحتى يفتح
لهم منتدى النبوة على مصراعيه .
ولأن عادة النبي الجديد أن يعترف بأسرة الانبياء السابقين

وكتبهم . . فكان لابد لهؤلاء الادعياء الجدد من الاعتراف
بالقرآن .

وللتوفيق بين اعترافهم بالقرآن وانكارهم للمعجزة والغيب
اقتضى الامر تفسيراً مبتدعاً للقرآن يوافق الهوى والتضليل
والتدجيل .

وهكذا اتفقوا جميعاً على تفسير القرآن تفسيراً باطنياً
ليتخلصوا من ظاهر الحروف ويتحللوا مما توجبه .

فالشياطين في القرآن هي رموز للحواس والرغبات
والشهوات .

والملائكة هي الخواطر الطيبة الخيرة .

وابليس ليس كائناً حقيقياً له وجود حقيقي وانما هو
مجرد رمز للشر الذي يسيطر على النفس .

والمعجزات التي رواها القرآن للانبياء كانت رموزاً لا حقائق
فعصا موسى هي الشريعة التي جاء بها ليهدى بها الشعوب
ويقودها .

« قال هي عصا أتوكا عليها واهش بها على غمى »

(طه - ١٨)

وغنمه هم شعبه .

فاذا القى بعصاه تحولت الى أفعى والتهمت ثعابين السحرة
ولم يحدث أن خرجت من العصا أفعى كما يقول القرآن . .
وانما هم يدعون أن هذا رمز للحجة : حجة الشريعة وبرهانها
تلتهم أفاعى الكذب . . (لقد ألجم الناس بحجته وهذا كل
ما حدث) .

وحيثما ضرب موسى البحر بعصاه لم ينشق .

وانفلاق البحر الذي يرويه القرآن يفسرونه بأنه رمز

لفرقان الحق من الباطل بواسطة شريعة موسى وحجته
(عصاه) .

ولم يضم موسى يده الى جناحه ليخرجها بيضاء من غير سوء
وانما هذا رمز لليد الخيرة التي قدمها موسى لفرعون .

واحياء عيسى للموتى هو رمز لما فعلته تعاليم عيسى في
النفوس بتنويرها . . . لقد أخرج الجاهل من ظلمة جهله ولم
يخرج ميتا من قبره .

وبالمثل ابرأؤه للأعمى كان ابراء لعمى القلب لاعمى العين .
وانزاله لمائدة من السماء هو رمز للغذاء العقلي الذي قدمه
للناس لا أكثر .

بهذا فسر « ميرزا حسين علي » ، الذي لقب نفسه « بهاء
الله » ، القرآن فجرده من فكرة المعجزة . . . والغيب (الملائكة
والشياطين) حتى لا تقوم عليه حجة ويطالبه أحد بمعجزة أو
بنبأ من الغيب . فلاغيب هناك . . . ولا امكانية لمعجزة ولم يسبق
لنبي أن أتى بمعجزة . . . وانما هي مجرد الدنيا التي نعيشها
يأتي الانبياء كما يأتي المصلحون العباقره فيعلموننا أن نحيها
بطريقة أحسن .

ومعجزتهم هي هذا الاصلاح الاجتماعي ذاته .

وهي رخصة مفتوحة ليدعى أي واحد النبوة . . . وليقول أي
مصلح أنه آت من عند الله .

ولا أدري لماذا سمي السيد ميرزا رسالته دينا . . . وأطلق
عليها الديانة البهائية . . . وقال أنها القيت اليه من الله .

لماذا لم يسمها وجهة نظر اجتماعية ألفها تأليفا كما يؤلف
المؤلفون أفكارهم بوحى الخاطر والهوى .

لماذا أعطى نفسه رخصة بأنه على صلة بما وراء الطبيعة
بينما هو لا يعترف بالملا الأعلى وراء تلك الطبيعة بما فيه من
ملائكة .

وإذا كانت حجته في هذه المزاعم هي أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين فلماذا يلزم بها البشرية وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً .
هل الأعمى هو الذى يلزم المبصر ؟
أم أن حجة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟
أتكون الشمس خرافة لا وجود لها إذا أنكر الأعمى رؤيتها ؟
وهل علينا أن نتبع أكثرية العميان لمجرد أنهم أكثرية ونجعل منهم حكماً فى أرقى المعارف والألهامات البشرية . . . التى تتطلب الرؤية كشرط أول ؟
وكيف يسمى ديناً ما يقوم أصلاً على العجز عن الرؤية . . .
وعلى استحالة الإعجاز . . . وعلى عدم وجود الغيب ملائكة وشياطين .

• هى مجرد أسئلة •

• وجوابها كلها واحد •

انها اختلاقات النبى الذى أراد أن يدخل منتدي الانبياء بلا مؤهلات . . . ويتسلسل الى مائدة الخالدين دون أن يمتحن . . . فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده فى السفارة الالهية التى ادعاها •

وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن • وخطورة اغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات . . . وكيف يمكن أن تؤدى أمثال هذه التفاسير الى اقتلاع الدين من أساسه •

وهو ما كانت تلجأ اليه بالفعل فرق الحوارج والاثنا عشرية والباطنية والبابية لتطويع القرآن لاغراضها فى هدم بعضها البعض •

وهذا ينتهي بنا الى موقف في التفسير لا بد من التزامه . .
هو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر ، لانتقل
الى تأويل باطنى الا باشارة والهام من الكلمات القرآنية ذاتها
فنفس القرآن بالقرآن ظاهرا وباطنا على ألا يتعارض تفسيرنا
الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر أو يكون نافيا له . .
ولا يكون التفسير الباطنى مقبولا عندى الا اذا كان مؤيدا
ومؤكدا للمعنى الظاهر . . ولا ترخيص فيه الا بضرورة ، وهذه
هى الحدود التى تملئها طبيعة هذا الكتاب المحكم . . الذى
لا يتقدم فيه حرف على حرف الا بسبب عميق وضرورة لازمة .
بهذا وحده نحفظ للقرآن مقامه ، وللنبوة حرمتها . . فلا
يدعيها مدع ، بعد أن قال الله عن قرآنه أنه قد ختم با
الرسالات .

الغيب

انفرد القرآن بتخصيص سور طويلة يتلو فيها أنباء وأخبارا وحقائق هي طلاس من الغيب المحجب . يحار فيها عقلنا ولا يملك لها نفيا ولا تأييدا . . . وبذلك يتركنا أمام اختيار صعب في أن نصدق أو نكذب . . . نوّمن أو نكفر . . . فما هنا حقائق بلا قرائن ملموسة .

وتفسير هذه الامور في اعتقادي . . . بالاضافة الى كونها تفضلا الهيا علينا بعلم ما لا نعلم ، أنها امتحان لعمق ايماننا ، ويدل على هذا ما ذكره القرآن عن المؤمنين :

« الذين يخشون ربهم بالغيب »

(الانبياء - ٤٩)

و « الذين يؤمنون بالغيب »

(البقرة - ٣)

وتكرر هذا في أكثر من سورة ، والمقصود هم المؤمنون بالقلب الذين لا يطلبون القرائن ولا يلحون في براهين ولا يدخلون في مجادلات . . . ولا يقولون . . . أرنا الله لنؤمن به . . . وانما يؤمنون به غيبا وقلبا .

ويدل على ذلك ما ذكره القرآن عن هواية الجدل والتقارع بالحجج . . . وكيف أوردتها كصفة مكروهة في الانسان .

« وكان الانسان أكثر شيء جدلا »

(الكهف - ٥٤)

فالدين احساس قبل أن يكون نظرية تؤخذ بالبرهان .
وهو حالة قلبية أولا قبل أن يكون حالة عقلية .
وكامتحان لهذه الحالة القلبية وهذا الموقف القلبي يطرح علينا
الله في القرآن من الطلاسم الغيبية مالا يمكن أن نقيم عليه برهاننا
بالسلب أو بالإيجاب .

وبهذا يكشفنا أمام نفوسنا . . فاذا نحن نرفض ونكذب
بالرغم مما تصورناه في أنفسنا من ايمان . . لأنه لم يكن
أكثر من ايمان قشرة . . كان مجرد جدل عقلي .

وأمثال هذه الطلاسم . . الملائكة . . والجن . . والسماعة
والعرش . . والكرسى . . والصراط . . والجنة . . والميزان .
واللوح . . والقلم . . والبرزخ .

وأكبر طلسم ولاشك هو « الشيطان » نفسه .

ابليس وقبيله . . ويقول عنه الله :

« انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا
الشياطين أولياء (أنصارا) للذين لا يؤمنون »

(الاعراف - ٢٧)

« ومن يعيش (ومن ينصرف) عن ذكر الرحمن نقيض له
شيطانا فهو له قرين (مصاحب وملازم) »

(الزخرف - ٣٦)

وحكاية هذا القرين الشيطاني تتكرر في عدة أماكن .

ويروى لنا الله يوم القيامة حينما ينكشف لكل واحد قرينه الشيطاني وهو دائما من الجن ، (وكانت وظيفته طوال الحياة الاغراء بالشر) . . حينما ينكشف له قرينه ويشاهده فانه يهتف ندمان متحسرا :

« يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين »

(الزخرف - ٢٨)

وهي آية شديدة اللطف والحفاء . . فنحن نعرف أن أبعد نقطتين على الارض هما ما بين المشرق والمغرب .

ولكنه في هذه الآية يقول : «يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين» يقصد بذلك أقصى البعد .

وهو أمر لا يمكن تفسيره الا أن يكون مغرب الشمس هو في نفس الوقت مشرق لها على مكان آخر . . وهو أمر لا يكون الا على أرض كروية تدور . . فتصبح بذلك كلمة « بعد المشرقين » على أنهما أبعد نقطتين بالفعل . . أبعد حتى مما بين المشرق والمغرب .

وهذا المثال يدل على مدى الحفاء في القرآن . . وان فهمه يحتاج الى كل الجهد . . وان مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن تفسر في عصرها وزمانها .

وهذه اشارة بأن حكاية القرين من الجن هي أيضا أمر غيبي لن يفهم الآن ولكن سوف يتضح في ميقاته وزمانه ، ولكن علينا أن نؤمن اذا كان لنا قلب واحساس وفطرة وزوج تذكر ما كان لها في عالم الملكوت .

والحقيقة ان الايمان بالجن والملائكة قلبا . . هو دليل كاشف على نوع من التذكر الغامض لعالم القدس والملكوت وأنه ايمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاو .

ثم يروى لنا الله في القرآن أن الانسان لا يترك لقرين الشر من الجن وانما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير .

ويظهر هذا القرين الملائكى ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه .

« وقال قرينه هذا ما لدى عتيد »

(ق - ٢٣)

ثم هناك ملائكة كاتبون وملائكة حافظون تعمل فى خدمة الانسان دون أن يراها .
ثم هناك ملائكة العرش .

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية »

(العنكبوت - ١٧)

كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ٠٠ ؟ أم هي ثمانية صفوف كل صف فيه مالا نهاية من الملائكة أم هي ثمانية قوائم فيزيقية أو ميتافيزيقية ٠٠ لا أحد يعلم ، فالقرآن لم يحدد وانما قال ثمانية وسكت ، ولم يقل لنا ثمانية ماذا ؟

ثم ماهو العرش ٠٠ أم هو رمز ؟

وما هو الكرسي ؟

انه يوصف فى آية الكرسي بأنه :

« وسع كرسية السماوات والارض »

(البقرة - ٢٥٥)

ومعنى هذا أن كرسى الله وسع السماوات والارض بما فيها .

فاذا كان هذا هو الكرسي فما بال العرش بأسره ٠٠ وكيف تحمله مخلوقات .

أم هي مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق .. ولعلها قوى
كهرمغناطيسية هائلة .

ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم في فضاء
الكون ؟

وقد يكون « العرش » مجرد كلمة مجازية كما نقول عن
الكعبة مجازاً أنها « بيت الله » .. كذلك نتكلم عن « عرش
الله » ..

ثم هناك جبريل رسول الملائكة وروح القدس .

ويروى عن النبي أنه رآه مرتين على صورته الحقيقية ..
ويذكر الحديث أن إحدى هاتين المرتين كانت في البقيع
وفي ليلة مقمرة وأن مرأى ذلك الملك قد سد الأفق وملا
جنبات السماء .. وأن النبي وقع مغشياً عليه من فرط
الرهبة .

وهو حديث يمكن أن يشك في صحته .

ولكن ما لا يشك فيه هو ما أورده الله عن جبريل في سورة
النجم متحدثاً عن القرآن .

« ان هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى »

(النجم - ٤ ، ٥)

فوصف جبريل بأنه « شديد القوى » .

وفي سورة التكوير .

« انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين »

(التكوير - ١٩ ، ٢٠)

والرسول الكريم هنا هو جبريل ذو القوة والمكانة عند ذي

العرش .

وحينما يصف الله أحد مخلوقاته بأنه « شديد القوى »

وبأنه ذو القوة والمكانة فلا بد أنه هائل عظيم فى قوته وفى
امكانياته .

ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل الى الارض فى
أية صورة ويحمل الوحي الى أى نبي فى أى عصر بأية لغة .
وعن بقية الملائكة من ذوى الرتبة العادية . . يقول القرآن
بلسانهم . « وما منا الا له مقام معلوم » أى أن كل واحدا يقتصر
عمله على دور محدد ووظيفة واحدة . . لا تتعدد لياقات الملك
وكفائاته ووظائفه كما تتعدد وظائف الانسان ومواهبه . .
فالانسان مفضل على كثير من الملائكة فالله قد « علم آدم
الاسماء كلها » وحينما سأل الملائكة عن تلك الاسماء قالوا
« سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا »

والاسماء هى عديد المعارف والمواهب التى فضل بها
الانسان على غيره من المخلوقات .

ويعلمنا الله أن الملائكة ليس لهم جنس معين فهم ليسوا
بالذكور ولا بالاناث وهم لا يتناسلون ولا يموتون مثلنا ويؤكد
أنهم ليسوا بناته ولا أبناءه بل مجرد مخلوقاته ، وكيف يكون له
أبناء وله الملك والملكوت كله وهو الخالق لما يشاء . . ويقول
أنهم يعيشون فى طاعة وليست لهم حرية الانسان فى أن يعصى .

« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »

(التحريم - ٦)

ويروى الله عن الجن تفصيلا فيقول انهم أمم منهم الصالحون
الاخيار ومنهم الكفرة الاشرار . . وأنهم ذكور واثاث وانهم
يتناسلون . . وانهم يستمعون الى ما يدور فى عالم الانس
ويوسوسون لهم . . ومنهم المردة الذين يتطاولون فيتسمعون
الى ما يجرى فى الملا الاعلى أملا فى معرفة الغيب فيقتدسون

بالشهب ويحرقون ، ومنهم من يمس الانسان فيصيبه بالضرر ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك الا بمشيئة الله . . . كما أن الشفاء لا يمكن أن يتم الا بمشيئة الله . . . أما محاولة استرضاء الجن بتقديم الذبائح والقرايين لاستجلاب الشفاء فهو جهل وشرك . . . كذلك تحضير الجن لتسخيرهم للمنافع أمر يعود في النهاية بالضرر وليس بالنفع على اصحابه .

« كان رجال من الانس يعوفون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

(الجن - ٦)

وعلى لسان الجن يروى القرآن حكاية الاستماع والتسمع .

« وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا ، وانا لا ندرى أشر أريد بهم في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قلدا »

(الجن - من ٨ الى ١١)

ويؤكد القرآن ان الجن لا يعرف الغيب وأنه يتسمع دون جدوى لانه معزول عن السمع .

« انهم عن السمع معزولون »

(الشعراء - ٢١٢)

وأنهم يموتون ويبعثون ويحاسبون كأبناء آدم .
ويروى ما كانت تفعل الجن ايام سليمان وكيف سسخرها الله لخدمته .

« ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نلقى من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء »

من محاريب وتمثيل وجفان كالجواب (أى أوان هائلة
كالحياض) «

(سبأ - ١٢ ، ١٣)

ثم يروى عن خطف عرش بلقيس :

« قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من
مقامك وانى عليه لقوى أهين . قال الذى عنده علم من
الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه
مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلونى أشكر أم
أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي
غنى كريم »

(النمل - ٣٩ ، ٤٠)

ونفهم من الآية أن « الذى عنده علم من الكتاب » كان اقوى
من الجن واقدر فهو قد أتى بالعرش فى لمح البصر .
ومرة اخرى يشير الى جهل الجن فى سورة سبأ .

« فلما قضينا عليه الموت (على سليمان) ما دلهم على
موته الا دابة الارض تأكل منسآته (عصاه) فلما خر
تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى
العذاب المهين (عذاب التسخير لسليمان) »

(سبأ - ١٤)

فهنا رجل يموت وهو واقف على عصاه فلا يكتشف الجن من
حوله أنه مات ويظنون على حالهم من السخرة فى خدمته . .
حتى تأكل حشرة قارضة عصاه من أسفلها . . فيختل توازن
جثته وتهوى على الارض . . هنا فقط يدرك الجن أن سليمان
مات وهذا غاية الجهل .

ثم يروى لنا القرآن أن الله علم سليمان لغة الطير ولغة
النمل .

« حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل
ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم
لا يشعرون • فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني
أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل
صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين »

(النمل ١٨ ، ١٩)

ومثل هذا الحديث عن لغة النمل كان أمرا مستغربا في
الماضي •• ولكن العلم يقول الآن بناء على الشواهد والملاحظات
ان النمل له لغة وكذلك النحل •• وكل فصائل الحشرات
التي تبني مجتمعات وخلايا وتنظيمات •• فبدون لغة متبادلة
كان يستحيل على تلك الالوف المؤلفه من الحشرات أن تنتظم في
حياة وتوزع بينها الوظائف •

وادراك نملة لسليمان أمر ممكن مثل ادراك سليمان لله •
ثم تأتي الى الشيطان فيعلمنا القرآن أنه من فصيلة الجن هو
وقبيله ولكنهم أمهلوا فلا يموتون الا اذا قامت الساعة فيكون
موتهم ثم بعثهم ليخلدوا بعد ذلك في الجحيم •
والشياطين هم الذين علموا الناس السحر •• وما يفرق به
الساحر بين رجل وزوجته •

ويروى القرآن أن اساليب السحر جاءت الى الارض لاول مرة
في بابل نزل بها ملكان هما هاروت وماروت جاءا الى الارض
في شكل بشر •• وان الله أراد بنزول هذه الاسرار فتنة
الناس وامتحانهم •• ويتكرر دائما في القرآن وفي أكثر من
مكان حكاية امتحان النفس الانسانية بالخير وبالشر •

« كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة »

(الانبياء - ٣٥)

والشر في الآية مذكور قبل الخير كوسيلة امتحان
ونزلت قصة هاروت وماروت في سورة البقرة •

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس
السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت
وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر
فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم
بضارين به من أحد إلا بأذن الله . . . ويتعلمون ما يضرهم
ولا ينفعهم . . . »

(البقرة - ١٠٢)

وبذلك يؤكد الله انه حتى السحر بالضرر لانسان لا يفعل
أثره الا بمشيئة الله .
وفي ذلك اعتراف ضمنى صريح بمسألة السحر . . . وتحقيق
عن كيفية نزوله وتاريخه ومكانه . ولكنه يدمغ السحر
والسحرة .

« ولا يفلح الساحر حيث أتى »

(طه - ٦٩)

« أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »

(يونس ٧٧)

وهذا السحر الذى يتكلم عنه القرآن . . . والذى جاء ذكره
مرة أخرى فى قصة موسى وفرعون . . . حينما جلب فرعون
السحرة والقوا بحبالهم وعصيهم فاذا هى حيات تسعى ومرة
ثالثة فى حديث السامرى وهو اليهودى الذى صنع بالسحر
عجلا من الذهب له خوار . . . ثم حكاية الساحرات النفاثات فى
العقد . هذا السحر الذى ورد فى القرآن هو علم قديم
اندثر . . . وهو غير مانرى حولنا ونسمع من شعوذات ، فلم
يبق الآن من السحرة الا ادعياء يتكلمون بما لا يعرفون . . .
ويزعمون مالا يقدررون . . . اما المخطوطات القديمة التى ضمت
معظم هذه الأسرار فقد اندثر اكثرها . . . ولم تبق الا
قصاصات اختلط فيها العلم بالخرافة . وكذلك النداء على الجن

وتحضيره وتسخيره هو الآخر علم شحيح لا يعرفه في اصوله
الا قليلون . . وهم يشقون بهذه المعرفة ويهلكون .
أما موقف العلم والعقل من هذه الاسرار . . فهو بايجاز أنه
لا يعلم ولا يعقل .

وبعض الظواهر التي هي من قبيل السحر . . كالتنويم
المغناطيسي يعترف بها العلم دون أن يجد لها تفسيراً .
لا يعرف العلم الى الآن كيف تتسلط ارادة المنوم على الوسيط
وكيف يتصل عقل الاثنتين فيصبحان كعقل واحد ما يراه المنوم
يراه الوسيط النائم . . وما يطلبه المنوم يستجيب له الوسيط
فوراً ولو كان امراً بالشلل أو الغيبوبة . . أو الارتفاع في
الهواء .

كل ما فعله العلم أنه اطلق على هذه الاشياء اسماء ومصطلحات
مثل الايحاء . . والوساطة . . ونشاط العقل الباطن . . مجرد
ألفاظ .

وبالمثل ظاهرة كالتليباتي . . والجلاء البصري ، والكشف ،
والهواتف .

كل هذه حقائق أغرب من السحر يسجلها العلم ثم لا يعرف
لها تفسيراً ولا يعقلها .
فاذا جئنا الى البرزخ .

« ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون »

(المؤمنون - ١٠٠)

ذلك البرزخ الذي يفصل أرواح الموتى عن دنيا الاحياء فان
القرآن يعود فيلقى الضوء على معناه في آيتين منفصلتين .

« وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح
أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً »

(الفرقان - ٥٣)

والحجر المحجور هو المنع الممنوع المحظور .

والآية نتحدث عن احواض البحار والمحيطات المملحة وانهار المياه العذبة كيف تلتقى ويصب الواحد منها في الآخر دون أن تمتزج ودون أن تتلوث الانهار العذبة بالملوحة . . فتظل الانهار عذبة والمحيطات ملحة بما أقام الله من برزخ (فاصل أو حاجز) بينهما .

ويتكرر نفس الكلام في آية أخرى بسورة الرحمن .

« مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان »

(الرحمن - ١٩ - ٢٠)

ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الارض الفاصلة . . فالارض الفاصلة لم تمنع من مسيل الانهار لتصب في المحيطات . . وانما في القوانين التي جعلت المحيطات في الحفض من الارض والانهار تنزل اليها من عوالي الجبال ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة . . ثم أن الله جعل مياه المحيطات ترتفع في المد (بفعل جاذبية القمر) ولكن بمقدار ولو كان القمر أقرب الى الارض مما هو . . لكان المد العالى الذى يحدث كفيلا بأن تصب المحيطات في الانهار فتلوثها ولما وجدنا قطرة ماء نشربها .

ان البرزخ . . والحجر المحجور . . والمنع الممنوع . . كلها اشارات الى القوانين الفيزيائية التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شىء حدوده ومكانه .

وهذا يفسر لنا مقاله القرآن عن الموتى .

« ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون »

(المؤمنون - ١٠٠)

فليس معنى البرزخ هنا فاصل مكاني يفصل ارواح الموتى عن دنيا الاحياء . . وانما معناه القوانين المانعه . . فالارواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة . ولهذا يستحيل عليها أن تخاطبنا ويستحيل علينا أن نخاطبها لأن بيننا برزخا .

هو اختلاف القوانين بين عالمنا وعالم الارواح .. مع أنها قد تكون حولنا في ذات اللحظة والمكان ، ولكن الاتصال يظل مستحيلا ومعدوما لاختلاف قوانين وجودها عن قوانين وجودنا وهذا هو البرزخ .

ومن هذه الآيات نفهم اسلوب القرآن في التعبير بالشفرة عن الاسرار والغيوب .. فهو ليس كتابا في الهيدروليكا أو الفيزيكا ليخوض في تفاصيل علميه .. وإنما هو يكتفي بلفظة ذات دلالة مثل .. برزخ .. كلمة جميلة موحية لها ظلال وايحاءات .. ثم يتركنا نفكر .. ونصدق أو نكذب .
أما القلم واللوح . فأنا نجد الله يقسم بالقلم وما يسطر به .

« ن والقلم وما يسطرون »

(القلم - ١)

وأغلب الظن انه ليس قلمنا الذي نكتب به المقالات وتلهمنا فيه الشياطين .. وإنما المقصود هنا القلم الالهي الذي يكتب به الله أقدارنا في اللوح المحفوظ .. أو القلم الذي تسطر به الملائكة ، والله في القرآن يكتب ويمحو .

« يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

(الرعد - ٣٩)

وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله منلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس .. وهو غير صحيح .. والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل الى اللامعقول .. الى محو القدر المقدور ، والله حر فعال لما يشاء لا يسأل عما يفعل .. وبذلك أفسح الله الامل للتائبين وجعل التوبة تتخطى القدر المقدور نفسه .. وهذا دليل على مطلق حرية الله ومنتهى رحمته .

ونفهم هذه الحرية المطلقة مرة أخرى فيما يروى القرآن عن أيام الله فهو يقول في احدي الآيات .

« وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون »

(الحج - ٤٧)

وفى آية أخرى يقول عن الملائكة .

(تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين
الف سنة »

(العارج - ٤)

ومعنى هذا أن أيام الله هي كما يتساء الله ، فاذا شاء يكون
اليوم بألف سنة واذا شاء يكون بخمسين ألف سنة . .
فهو ليس خاضعا لزمانه مثلما نحن خاضعون وانما هو يخلق
زمانه . . وهذا شرح فلسفى رفيع لمعنى الأبدية . . أو زمن
من لا زمن له .

كل هذه المعاني تبرق كالومص فى كلمات ونفوت القارىء
اذا لم يجاهد فى سبيلها . . وقراءة القرآن فى نظرى جهاد .
ومن يقرأ القرآن بخفة لم يرفض ما فيه . . يظلم نفسه . .
ولا يظلم القرآن شيئا .

واعمق ما فى القرآن هو ماورد عن الغيب . . ورب كلمه من
حرفين تمر عليها وانت لا تبصرها وفيها سر وجودك كله .
ورب حقيقة تشيح بيدك وانت تقرؤها فى استهزاء . .
وتقول . . كيف . . هذه أساطير . هذا كلام غير معقول . .
لمجرد أنك قرأت كتابا بالانجليزية واعبرت نفسك مثقفا .
وأحسن رد عليك هو كلمة المسيح .

« لو أنك عملت بما تعلم . . لكشف لك الله علم ما لا تعلم،
لو أنك سلكت طريق طالب العلم الحقيقى المخلص الذى
يهرأ كل العلم المتساح له ويفهم ما فيه ويعمل بما فيه . .
لاصبحت مستحقا . . ولعلمك الله علم ما لا تعلم وفتح قلبك
لا غمض عليك مما تراه كلاما بلا معنى .

وهو نفس طريق الصوفية المسلمين لادراك الغوامض
بالكشف . . ولرؤية الغيب شهودا . . وهو قراءة القرآن
والعمل به وتطبيق كل حرف فيه والنداء على الله باسمائه فى

حشوع وطلب العلم والتعلم . . . وانتظار الفتح .
وهو نفس وعد القرآن .

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »
(العنكبوت - ٦٩)

ووعده الانجيل .
« اطلبوا تجدوا دقوا على الباب يفتح لكم »
على ان يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال
وخلوص النية . . . وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدى .
وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على احابه واوليائه
فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهودا وترى الغيب حضورا
وتسمع ما لا اذن سمعت .

« ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم »

(الانفال - ٢٣)

والله لا يكذب وعده ابدا . . . ولكن نحن الذين نكذب وعودنا
« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنى ولم نجد له عزما »
(طه - ١١٥)

ونأى الى ذروة الغيب . . . وهى الساعة .
والساعة هى ذروة الغيب المغيب التى لم يكشفها الله لاحد
ولا حتى لانبيائه .

« يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند
ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السماوات والارض
لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل انما
علمها عند الله »

(الاعراف - ١٨٧)

انه لعلم اختص الله به نفسه دون الخلق جميعا وانه لعلم
رهيب كما سوف نرى .

الساعة

• الساعة ذروة الغيب •

وعلمها محجوب عن الكل ، اختص الله به نفسه دون العالمين •

ولكنه يحدثنا في القرآن عن أشراط وعلامات لهذا اليوم ، ويصف لنا بعض تلك العلامات •

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يفتشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون »

(الدخان - من ١٠ - ١٦)

ونجد إشارة الى هذا الدخان في رؤيا يوحنا اللاهوتى الاصحاح الثامن « ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم فأظلمت الشمس وأجوا من دخان البئر » • ويقول يوحنا في رؤياه ان هذا الدخان لا يقتل الناس وانما

يعذبهم خمسة أشهر ، وفي تلك الايام سيطلب الناس الموت
ولا يجدونه ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم .
انها ظاهرة طبيعية يقول عنها القرآن كما يقول يوحنا
اللاهوتى فى الكتاب المقدس كلاما متوافقا .
اننا أمام دخان سوف يلف الارض ويحجب الشمس . .
ويتعذب به الناس عذابا شديدا لأجل محدود . . ثم يكشف الله
عنهم .

ثم يخبرنا القرآن بعلامة أخرى فى سورة النمل :
« **واذا وقع الفول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض
تكلمهم** »

(النمل - ٨٢)

ثم علامة ثالثة :

« **اقتربت الساعة وانشق القمر** »

(القمر - ١)

والله يقول لنبيه أن ينذر كل ظالم من هذا اليوم :

« **وأندرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما
للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** »

(غافر - ١٨)

ولاشك أن الكل سوف يؤمن حينما تظهر تلك العلامات .
حينما ينشق القمر وتخرج من الارض دابة تتكلم ، لا تبقى
ريبة فى قلب مرتاب . . ولكنه سوف يكون ايمانا فات أوانه
لانه ايمان المقهور الذى لا فضل له ولا اختيار . . انتهازا
للخير الاكيد الموعود . . كما يتسابق الانتهازيون فى اعلان
الطاعة والولاء ويمشون فى ركب كل نظام جديد حينما يرون
ركائزه قد دعمت وثماره قد دنا قطافها ولهذا لن يقبل الله
هذا الايمان .

« يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن
آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا »

(الانعام - ١٥٨)

انه دائما يتقبل من الذين يؤمنون بالغيب . . دون حاجه
الى برهان ، ودون حاجة الى عيان .
بعيان القلب وليس بعيان النظر . فالغيب امتحان .
هل يرى القلب ما لا تراه العين فيصدق ويؤمن غيبا ؟!
ان فعل فقد دل بفعله على مرتبته العالية وانفتاح بصيرته
واستحقاقه الخلاص .

وان لم يفعل فهذه شهادة بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعقل
الا كما ترى الدواب وتسمع . . بالحواس الظاهرة . وقد دل
بذلك على مكانه فى أسافل الدرجات .
ثم تاتى العلامة الاخيرة وهى ياجوج وماجوج .
وهى قصة غامضة كلها رموز . . يتحدث فيها القرآن عن
عالم رحالة يجوب أقطار الارض اسمه « ذو القرنين . » وأثناء
رحلته فى مكان ما بين السدين .

« وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا
ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون فى الارض
فهل نجعل لك خرجا (اجرا) على ان تجعل بيننا
وبينهم سدا قال ما مكنى فيه ربي خير فأعينونى بقوة
اجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد (كتل الحديد
الكبيرة) حتى اذا ساوى بين الصلطين (جانبي الجبل)
قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه
قطرا (نحاس مذاب) فما استطاعوا ان يظهره وما
استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي
جعله دكا وكان وعد ربي حقا وتركنا بعضهم يومئذ يموج
فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا »

(الكهف من ٩٣ - ٩٩)

ما هنا قصة غامضة تماما يتخبط فيها المفسرون .

البعض يقول أن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث بن نوح . .
وانهم هم الجنس الاصفر . . الصين وما فى دربها . عاشوا فى
آجال وأحقاب من الجهالة والتخلف ، والشعوب المتقدمة من
حولهم بنى أسوارا من العلم والتصنيع . . وذو القرنين
وصهر الحديد والنحاس كلها رموز للعلم والصناعة التى كانت
دائما يحجزهم وراء حاجز من الجهل والتخلف وتقيم حولهم
سدا .

حتى اذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن انفسهم هذا التخلف
وأخذوا بأسباب الصناعة ، وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة
الهيدروجينية . . وتكاثروا الى آلاف الملايين . . وهدموا السد
(ولم يكن ذلك السد الا رمز الجهل الذى يعزلهم عن العالم)
ساحوا فى الارض ونزلوا من كل حدب ينسلون ، وكانت الحرب
التى تضع ختام الحياة .

وأذكر الآن حديثا بين الماريشال مونتهجرى وماوتسى تونج
فى لقاء بينهما منذ أكثر من خمسة عشر عاما ألقى فيه الماريشال
العجوز هذا السؤال على زعيم الصين . . عن المخاوف التى
تتردد فى الاذهان من غزو الصين للعالم .

وكانت اجابة الزعيم الصينى دقيقة جدا ومازلت أذكرها
بحذاقيرها . . فقد قال :

— كل ما أعلمه أن فى عهدى لن يحدث هذا . . أما بعدى
فلا أدرى .

وهى اجابة دقيقة وصادقة . . فلا الرجل ولا نظامه يحملان
عداء لاحد . . وانما يقدمان العون والصدقة لكل الشعوب .

ولكن بعد ماوتسى تونج . . وبعد أن تصبح السبعمائة
مليون ، ألف مليون . . لا يدري الا الله . . ماذا يكون من امر
الصين .

ولا يعنى هذا الكلام ان التفسير صادق . . فالامر كله رجم

بالغيب ، ولا يعلم الغيب الا الله . . وكل ما ذكر في تفسير
قصة يأجوج ومأجوج هو تخمين في تخمين . . وعلى رأى
المتصوفين . . هذه امور تفسيرها حدوثها .

ومع هذا فانا لو فتحنا الاصحاح العشرين من سفر الرؤيا
وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج فانا نراه
يقول نفس المعانى ويشير نفس الاشارات .

« متى تمت الالف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج
ليضل الامم الذين فى اربع زوايا الارض . . جوج ومأجوج ،
ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ، »

ما هذه الامة التى عددها كرمل البحر . . والتى سوف
تحتشد لتحارب العالم . . عندما تم السنة الالف .
ولعله يقصد الالف الثانية ميلادية . . وبقا عليها الآن اقل
من ثلاثين سنة .

هى أمور تثير الخيال . . وهى نبوءات تتداعى الواحدة
لتؤيد الاخرى ولا نملك الا الصمت . فمثل هذه التاويلات
لا يحق لنا ان نؤولها . . والوحى يقول لنا عن القران :

« وما يعلم تاويله الا الله »

(آل عمران - ٧)

هو وحده الذى يملك مفتاح مافيه من رموز . . وهو وحده
الذى عنده علم الساعة .

والاجتهاد مباح فى أمور الدنيا لكن القطع فى أمر غيبى
أكبر خطأ يتورط فيه قارىء للقرآن فضلا عن أنه ليس فى
مقدورنا .

ويروى لنا القرآن أن الساعة ستأتى حينما تبلغ الارض
ذروة حضارتها ويبلغ الانسان غاية تقدمه ، فتأخذ الارض
زخرفها وزينتها . . ويظن الانسان أنه تحكم فى كل شىء
وأصبح قادرا على كل شىء . . فهو يتحكم فى الامطار ، ويزرع
الصحارى ويداوى ما استعصى من أمراض وينقل القلوب

والعيون من موتى الى احياء ، ويسافر بين الكواكب ويفجر
الذرة وينقل الجبال . . ان الله يتوعدنا منذرا :

« حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها
أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها
حصيدا كأن لم تكن بالامس »

(يونس - ٢٤)

وفى الآية لطف وخفاء . . فالله يقول ان الساعة تأتي ليلا
أو نهارا ، ولا تفسير لذلك الا أن تكون الارض كروية دوارة
نصفها ليل ونصفها نهار ، فاذا جات الساعة وهى تاتي في
لحظة :

« وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب »

(النحل - ٧٧)

فان نصف سكانها يكونون فى ليل والنصف الآخر فى
نهار . . فلا يصدق لو قال انها تاتي نهارا ولا يصدق لو قال
انها تاتي ليلا والله لا يكذب وعده أبدا ولهذا يقول فى لطف
وخفاء أنها تاتي ليلا أو نهارا .

ومما يدل على أهمية هذه الاشارة تكرارها فى آية أخرى
عن الساعة :

« قل أرايتم ان اتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل
منه المجرمون »

(يونس - ٥٠)

مرة أخرى يقول أن ذلك العذاب المفاجيء سوف ياتي بياتا أو
نهارا . . وهى اشارة لنا لنتفكر .
وهكذا يصل بنا القرآن الى العلامة الاخيرة من علامات
الساعة وهى نفخة الصور وقيام القيامة .
والمشاهد التى يرويها القرآن للقيامه رهيبه يتشجع لها الدم

في العروق . . فالشمس تخسف والقمر يكسف والجبال
تنسف والنجوم تنكدر والبحار تنفجر والارض تتزلزل وكل
الاحياء في الارض والسموات تصعق الا من يشاء الله ان يحفظه
ليشهد هذا اليوم .

يحدث هذا مع نفخة الصور الاولى .

ومع النفخة الثانية يبعث الكل ويبدأ الحساب .
ونجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي صورة مشابهة للقيامة .
ويقول الاصحاح السادس :

« ونظرت لما فتح الختم السادس واذا زلزلة عظيمة حدثت
والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم
ونجوم السماء سقطت الى الارض كما تطرح شجرة التين
سقاطها اذا هزتها ريح عظيمة والسماء انفلقت كدرج ملتف
وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما » .
وفي سورة الانفطار يصف القرآن القيامة :

« اذا السماء انفطرت (أى انشقت) واذا الكواكب
انتثرت واذا البحار فجرت واذا القبور بعثرت »

(الانفطار - ١ - ٤)

وفي سورة التكوير :

« اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا الجبال
سيرت واذا العشار عطلت واذا الوحوش حشرت واذا
البحار سجرت (أى فجرت نارا) »

(التكوير - ١ - ٦)

وفي كل الروايات التي يرويها القرآن عن القيامة يذكر لنا
فيها أن الله ينزل هو وملائكته .

وتبدو لي القيامة دائما أشبه بصورة مكبرة لما حدث لحظة
طلب موسى أن يرى ربه . . ويروي القرآن ما حدث اذ ذلك
تفصيلا في سورة الاعراف :

« قال ربي أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن أنظر
الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجل ربه
للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا »

(الاعراف - ١٤٣)

وهذا ما نراه يحدث مكبرا في كل صور القيامة .

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فينزلها
قاعا صافيا »

(طه - ١٠٥ - ١٠٦)

« هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام
واللائكة وقضى الأمر »

(البقرة - ٢١٠)

« وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها »

(العنكبوت - ١٦ ، ١٧)

« اذا دكت الارض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا »

(الفجر - ٢١ - ٢٢)

« وفتحت السماء فكانت ابوابا وسيرت الجبال فكانت
سرابا »

(النبا - ١٩ ، ٢٠)

« ونفخ في الصور فصعق من فى السماوات ومن فى
الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام
ينظرون واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب
وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم
لا يظلمون »

(الزمر - ٦٨ ، ٦٩)

هناك دائما حضرة ربانية وتجل مثل الذى صعق موسى

ودك الجبل .. ولكن هذه المرة يصعق الكل ويدك جميع الجبال .
ولهذا نرى القرآن يتحدث في مكان آخر عن الحجارة :
« وان منها لما يهبط من خشية الله » .. لاشيء يتحمل الحضرة
الربانية حتى الحجر يهبط .. ويبدو أن القيامة ما هي الا التجلي
الرباني الذي لا تحتمله جميع صور المادة فتنبوب .. فلاشيء
يرتفع أمام وجه الله .. الجبال تنوب خشوعا ونحنى هاماتها
ثم تتبخر وتصبح سرايا .. كل صنوف الحياة تصعق ..
لا صوت .. لا حياة .. لقد رفع الله الحجاب عن سسبحات
وجهه . « وأشرق الأرض بنور ربها » .
ويقول يوحنا اللاهوتي عن هذا النور في الاصحاح الواحد
والعشرين من رؤياه :
« والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها
لان مجد الله قد أثارها »
وهو النور الذي لم تحتمله المخلوقات اول الامر فصعقت
ثم بعثها ربها في نشأة أخرى ليكون الحساب .
« وننشئكم فيما لا تعلمون »

(الواقعة - ٦١)

ومعنى هذا أن النشأة الثانية سوف تكون على صورة مغايرة
لا نعلمها .. وبتحدث القرآن دائما عن لقاء بين كل انسان وبين
ربه .

« وكلهم آتية يوم القيامة فردا »

(مريم - ١٩٥)

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة »

(الانعام - ٩٤)

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

(الانشقاق - ٦)

« ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق (لانصيب) لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم »
(آل عمران - ٧٧)

« ذرني ومن خلقت وحيدا »

(البقرة - ١١)

« واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين »

(البقرة - ٢٢٣)

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا »

(الكهف - ١١٠)

وهو لقاء لا يمكن أن يتم والانسان في صورته البشرية ..
فاذا حدث فهي قيامة نصعق لها جميع المخلوقات وتندك الجبال
والبحار و « تبدل الارض غير الارض والسموات »
وفي ذلك يقول يوحنا اللاهوتي : « ثم رأيت سماء جديدة
وارضا جديدة لأن السماء الاولى والارض الاولى مضتا والبحر
لا يوجد قريبا بعد »

لأننا نقوم كلنا للقيوم .

ومن هنا كان اسمها قيامة .

« لمن الملك اليوم لله الواحد القهار »

(غافر - ١٦)

انتهت الخلافة الوهمية التي كان كل منا يتصرف فيها كأنه
اله وملك له ملك ورعية ، وحاكم يحكم في بيته ومملكته ..
حتى ظن بنفسه الظنون وتخيل أنه شيء .
هنا يعود الملك للمالك الحقيقي .
لقد حضر صاحب الشأن ، الخالق الذي خلق كل شيء ..
واليه يعود كل شيء .

القيامة باختصار هي تجلي الله بذاته .
 ولا شك أن الله موجود دائما في كل مكان وفي كل آن .
 ولكن . . فرق بين وجوده وبين تجليه بذاته .
 وبالتجلي بالذات يحدث القهر التام لكل شيء والفناء للصور
 المادية بأسرها فلا صورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله
 في توحده وكماله وتجليه .
 هذا حدسي في مسألة القيامة .
 أما تفسير القيامة بنظريات علمية عن اصطدام القمر بالارض
 أو فناء الشمس . . أو تقلص الكون واحتراقه أو تمدده في
 الفضاء . . أو اصطدام المادة بالمادة المضادة .
 فكل هذا فضول لا مبرر له . .
 فالانسان يموت بأسباب وبدون أسباب .
 وكما يموت الانسان الفرد تموت الامة وتموت الحضارة
 وتموت اجناس الحيوان بأسرها . وتموت النجوم في أفلاكها .
 لا حاجة الى كدح الذهن في أسباب للنهاية والتناهي .
 انه الناموس الذي اقامه الصانع الذي صنع كل شيء .
 واذا قال لنا الصانع انه سيقوم قيامة . . فاننا لسنا بحاجة
 الى اصطناع نظريات . . وأسباب . . ومبررات . . والمبررات
 لمن . انه الأمر الذي يأمر ولا سواء .
 ونفخة الصور هي رمز للأمر .
 ولهذا يأتي الامر في القرآن باكثر من اسم .
 مرة . . نفخ في الصور
 ومرة . . نقر في الناقور
 ومرة . . هي الزجرة
 وأخرى . . هي الزلزلة
 وأخرى . . هي العملة
 وكلها رموز للأمر . . والكلمة « كن فيكون »

- لقد جاء الامر ... وهذا كل شيء •
- انه الناموس •
- أن تكون لكل شيء قيامته •
- أن تكون هناك قيامة صغيرة لكل منا بالموت •
- وقيامه كبرى يفنى فيها الزمن فى الابد ويعسود الكل الى أصله ومنبعه •
- لا محل لشك أو ريبه •
- وانما هناك كل الدواعى والشواهد لان يسلم الانسان بالقلب بلا مجادلة وبلا مساءلة •

البعث

يخاطب الله نبيه في القرآن فيقول :

« انك ميت وانهم ميتون »

(الزمر - ٢٠)

لا يقول انك ستموت .. بل يقول : « انك ميت » .. انك تحيا بي وتسمع بي وترى بي وتنتطق بي .. وهذا شأن كل بشرى ، يحيا بالله ، ويرى بالله ، ويسمع بالله .. ولكنه في ذاته ميت .. لا حياة له بذاته ، وانما الكل معتمد في وجوده على الواحد الذي خلق .. المستغنى بوحدايته عن كل شيء .

وفي كلمة « انك ميت » عنف يوقظ الاحساس .. انها تضعك امام واقع مفزع وامام حالة في الحاضر لا حالة متوقعة في المستقبل .

وان الواحد منا ليحمل جنته على كتفيه بالفعل ، وفي كل قطرة عرق وقطرة لعاب يطرح بضعة ماتت من جسده .. كما تطرح الشجرة اوراقها الميتة كل يوم .
ان الموت حاضر في كل لحظة ومؤجل في كل لحظة .
ولا حي بحق الا الله .

انما نعيش نحن على استعارة وقرض وسلفة نستعيرها منه ،
على مجرد منحه بأجل .

ويقول الله لمحمد في حديث قدسي :

« عش ما شئت فانك ميت . . . أحب من أحببت فانك
مفارقة . . . امتلك ما امتلكت فانه للتراب . . . اعمل ما عملت
فان عملك مصاحبك »

عبثا نحب . . . فاننا نحب لنفارق من احببنا ، فهو حب الى
حسرة وخيبة ، الا اذا اخترنا أن نحب الحى البساقى الذى
لا يموت .

وعبثا نمتلك فاننا سنفارق ما نملك .

لن يصاحبنا الا عملنا .

وينكرر النذير بالموت والزوال والفناء فى القرآن عشرات
المرات ليلفت النظر الى الحقيقة الظاهرة المؤكدة بامتداد الحياة
الى أجل محدود تهلك بعده حتما .

وهى حقيقة ظاهرة ومؤكدة . . . ومع ذلك لا أحد يعيرها
اهتماما ، والكل يعيش ويتصرف كما لو أنه سوف يخلد على
الارض . . . ولهذا يبخل البخيل ويحبس الجبان ويكذب الكذاب
ويسرق السارق ويقتل القاتل ويطفى الطاغية ويستبد المستبد
لانه يشعر أنه فى أمان وأنه مخلد .

ولذلك قطع القرآن بجهل الاغلبية وبأن الاغلبية على الباطل
وحذر من اتباع الاغلبية فى مسأله العقيدة . . . لان الاغلبية
تعرف كيف تأكل وكيف تشرب ولكنها لا تعرف كيف تفكر
لتصل الى حقيقة . . . وقال :

« وما يتبع اكثرهم الا ظنا »

(يونس - ٣٦)

« فأبى اكثر الناس الا كفورا »

(الاسراء - ٨٩)

« وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم
لفاسقين »

(الأعراف - ١٠٢)

« وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله
ان يتبعون الا الظن »

(الأنعام - ١١٦)

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أن هم الا
كالأنعام بل هم أضل سبيلا »

(الفرقان - ٤٤)

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون »

(يس - ٧)

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا »
(يونس - ٣٦)

« بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون »

(المؤمنون - ٧٠)

ولو أن محمدا قد بدأ الدعوة الى الاسلام باستفتاء .. أيهما
تعبدون : الله .. أم الاصنام !؟

• لأجمع أهل مكة الا القليل على عبادة الاصنام .

• فادراك الحقيقة سوف يكون دائما من مواهب الصفة .

اما الاحتكام في مسائل المعاش وهموم البطن فيمكن الرجوع
فيه الى رأى الاغلبية فهذه شئون يعرفونها ويتكالبون عليها
بالغريزة .

وقديما أجمعت الاغلبية على اعدام سقراط وحرق برونو
وسجن غاليليو حينما واقتها الفرصة لتقول كلمتها في مسائل
الفلسفة والعقيدة والعلم .

ورجل العلم قد يفنى عمره في دراسة دودة أو تشریح نملة
•• وهو أمر غير مفهوم بالنسبة لعقل غوغائي •
والعقل الغوغائي لا يفهم أن مثل تلك الدراسة قد تفضي الى
سلسلة من البحوث تؤدي الى اكتشاف لقاح واق من شلل
الاطفال أو الجدري أو الانفلونزا •• وأنها قد تؤدي الى خير
يعم الجميع •

وأكثر الناس لا ينظرون الا للنفع العاجل القريب الملموس
فهم عبيد لمعادتهم وشهواتهم •• وليس هذا احتقارا للاغلبية
وانما فهم لحدودها ودورها •• فالذي يأخذ رأى الاغلبية في
معضلات المغنطيسية والكهرباء ، يظلم الاغلبية ويظلم نفسه
ويظلم المغنطيسية والكهرباء •

وفي مشكلات الفكر والعلم تكون القيادة صدقا وعدلا
للصفوة •• على أن تكون المشورة بين أهل العلم هي القاعدة
وليس الاستبداد بالرأى •

« وشاورهم في الامر »

(آل عمران - ١٥٩)

« وأمرهم شورى بينهم »

(الشورى - ٢٨)

« وما انت عليهم بجبار »

(ق - ٤٥)

« فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر »

(الفاشية - ٢١ - ٢٢ :

« ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله »

(آل عمران - ٦٤)

فالقرآن ضد عبادة الفرد وضد الاستبداد بالرأى حتى ولو
جاء الاستبداد من نبي •• وانما الاخوة والتعاون والمشورة
هي القاعدة •

« انما المؤمنون اخوة »

(العجرات - ١٠)

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

(المائدة - ٢)

« واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل »

(النساء - ٥٨)

ويؤكد القرآن أن الناس طبقات ٠٠ ولكنها ليست الطبقة التي تمنحها رؤوس الاموال والعقارات ٠٠ انها طبقية من نوع آخر .

الناس طبقات في العلم والمعرفة والتقوى ٠٠ والارواح لا تتساوى أبدا وان تساوت الابدان في حق الكفاية والعدل .

«يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»

(المجادلة - ١١)

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض »

(البقرة - ٢٥٣)

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

(الزمر - ٩)

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم »

(العجرات - ١٣)

ورغم هذه الاشارات الحاطفة فالقرآن لم يضع دستوراً سياسياً محدداً وانما ترك باب الاجتهاد مفتوحاً لان النظم السياسية زمنية متغيرة ٠٠ بوضع كل نظام ليلائمه عصره ويعبر عنه ، فاذا تغير العصر لزم الامر أن يتغير النظام تبعاً له .

والقرآن كتاب أزلي ٠٠ يضم بين دفتيه العلوم الأزلية

والحقائق الباقية ، ولا يحفل بالامور الوقتية المتغيرة .. ويتركها
لأصحابها يجتهدون فيها .

والقرآن كتاب دين وأخلاق وليس كتابا فى السياسة ..
ومع ذلك فهو يقدم توصيات عامة هى سمات الحكم الأمثل ..
(أن براعى حرية الفرد ، وأن يدع مقدرات الفكر والثقافة
للصفوة تقودها ولا يستفتى الاغلبيه الا فى أمور معاشها
الحياتية المباشرة ، وأن يكون طابع الحكم المشورة لا للطغيان ،
والعدل والكفاية لا الظلم والاستغلال) أما أى منهج .. وأى
تفاصيل .. فهو أمر مفتوح للاجتهد والقرآن لا يتدخل فيه .
والقرآن كتاب موجه الى قلب الفرد ليخلص الفرد ويهديه ..
فيكون خلاص المجتمع وهدايته نتيجته مترتبة على خلاص
أفراده .. وليس العكس .

أى انه لا يصلح المجتمع ليصل بذلك الى صلاح أفراده ..
بل هو يهدى الفرد ليهدى بذلك العالمين .
فهو لا يدق على باب السياسة ليغير مجتمعا .
وانما يدق على باب القلب ليهدى انسانا .
ذلك الانسان الذى قال عنه :

**« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكانما
قتل الناس جميعا ومن أحيأها فكانما أحيأ الناس
جميعا »**

(المائدة - ٣٢)

ان قتل انسان واحد ظلما وعدوانا هو انهزام للناموس
وقتل لكل الانسانية .

الى هذه الدرجة تبلغ قيمة الفرد والنفس الواحدة فى
شريعة القرآن .

ان الفرد وجود مطلق فى ذاته .. له كرامته وقداسته
وحرية . واحترام هذه الحرية هو اول شروط العبادة الحققة .

والفرد يموت جسديا في الدنيا ولكن روحيا له مطلق الوجود والحياة والخلود .. فلا يصح اعتباره مسمارا في آلة المجتمع ، يخلع ويستبدل بغيره ويضحى به ظلما لاي هدف وتحت اى شعار .. فالشعارات سوف تتغير والنظم تتبدل .. وتبقى روح الانسان اخلد من جميع النظم ، ولهذا وجب احترامها لذاتها وفي ذاتها .

وبهذا التقديس الرائع للانسان الفرد وحرية انفردت جميع الديانات واختلفت عن العقائد المادية التي لا ترى للانسان الفرد وجودا حقيقيا وانما هو ابن وقته وظروفه ومجتمعه ولا يبقى منه شيء .

والنفس الانسانية عند الماديين هي مجموعة ردود افعال ومجموعة مواقف ظرفية ومجموعة ملابسات وهي خادمة للجسد ومتوقفة عليه فهي تستشعر الجوع لتطعم الجسد وتستشعر الحافز الجنسي لتدفع الجسد الى التكاثر . فاذا مات الجسد ماتت بموته .

اما الروح فهي عندهم خرافة صوفية دينية لا معنى لها . ولا توجد في الفلسفة المادية حياة دنيوية تنتهى بالموت وحياة روحية متجاوزة لها ومتعالية عليها لا ينالها فناء ولا عدم .. وانما كل ما هناك هو هذه الحياة الدنيوية وليس قبلها ولا بعدها شيء وليس امامها ولا ورائها شيء .. وما نحن الا اجسادنا .

ومن هنا صح عندهم اعتبار الفرد مسمارا في المجتمع يمكن التضحية به واستبداله لصالح هذا المجتمع .. فالمجتمع هو الحقيقة الباقية والفرد هو الحقيقة الفانية وكل قبله هذا الفرد فيما ينجزه للمجتمع .

والسئلة تستحق عندي وقفة طويلة .

هل حقيقة ما نحن الا اجسادنا ؟

وبالتالى ما الدنيا كلها الا مادة ؟

في البدء كانت المادة ثم تطورت ثم أصبحت انسانا ..
وغدا يموت الانسان ويسدل الستار الحتامى على المسرحية ..
هكذا بكل بساطة

هم يقولون هذه حقائق موضوعيه ، فلنكن موضوعيين ..
فلا وجود الا لما هو موضوعى ، والجسد شىء موضوعى جدا
قابل للدرس والفحص والتشريح .

والقائل هنا يلجأ الى الحل السهل ويلجأ الى التبسيط ولو
كان تبسيطا مخلًا .. ولا يكلف نفسه حتى ولو نظرة تحت
الجلد .. حتى ولو نظرة الى داخل نفسه .

واذا قلت له أن الجسد ليس الانسان وأن داخل الجسد
نفسا هي لصاحبها ليست شيئا موضوعيا وانما هي حقيقه
ذاتية .. وأنه بالنسبة للانسان نجد دائما ذاتا في مقابل
موضوع .

قال لك وما الذات وما النفس .. انها مجرد حوافز الجوع
والجنس والخوف ومجموعة الاستشعارات التى يدرك بها
الجسد ما يحتاجه ، فهى ملحقاته الثانويه .. وهى فى النهاية
يمكن أن تكون موضوعا هى الأخرى .

موضوع بالنسبة لمن ؟

موضوع بالنسبة للآخرين ؟ !! وكيف ؟ .. والآخرون
لا يرونها ولا يدركون وجودها الا استنباطا من ظواهر السلوك
وهى ظواهر أغلبها كاذبه ، فكل منا يمثل على الناس بل ويمثل
على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه .

أم هى موضوع بالنسبة لصاحبها ؟

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعا فانها تبرد وتستهيل
تحت مشرط التحليل الى جثة وتستخفى عليه وتهرب من يديه
لأنها لا يمكن أن تكون موضوعا ولا أن توضع تحت مجهر
مثل ورقة شجرة . لأن جوهرها بالدرجة الاولى فى ذاتيتها ،
وحقيقتها انها الوجه الآخر من الصورة فهى الذات فى مقابل

الجسد الذى هو موضوع .. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجهها الحقيقة .. فاذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعى فلا بد من الاعتراف بأن هناك فى الوجود شيئا آخر غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذى هو الذات .

فاذا عدنا الى التعريف المادى للذات والنفس بأنها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف والاستشعارات التى يدرك بها الجسد أنه ظمان أو جوعان أو مشتاق جنسيا فاننا أمام تفسير متهافت ، فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الانسان .

ان الانسان ليضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافىء فى سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والحرية ، فأين حوافز الجوع والجنس هنا .. حتى العامل البرولينارى فى عيتنام يموت على مدفعه فى سبيل غد لم يأت بعد .. وهذا اثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقه متجاوزة وعالية على الجسد وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية .. تلك الارادة الهائلة التى تدوس على الجسد وتضحى به هى حقيقة متجاوزة عالية بطبيعتها وأمره ومهيمنة على الجسد وليست للجسد تبعا وذيلا .

وإذا كنت أنا الجسد فكيف أتحكم فى الجسد وأخضعه .

وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع .

ان مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الانسانية .

عن طريق النفس أتحكم فى الجسد

وعن طريق العقل أتحكم فى النفس

وعن طريق البصيرة أصح للعقل حدوده .

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الاثبات الواقعى الذى يقودنا الى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعا تموت بموته .

والذى يقول بان الانسان مجموعه وظائف فسيولوجيه ماديه لا غير . . عليه ان يفسر لنا أين يذهب ذلك الانسان فى لحظة النوم .

ان جميع الوظائف الفسيولوجيه قائمه ومسنمة أثناء النوم وجميع الافعال المنعكسة تحدث بانتظام فاذا شككت اليد بدبوس انقبضت بعيدا عنك . . والقلب بالمثل يدق والتنفس يتردد والغدد تفرز والاحشاء تتلوى والاعضاء التناسلية تهتاج . . ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة . . مجرد شجرة أو حيوان . أو حياة بدائية . . لا تختلف عن الحياة الحشرية . . فإين الانسان .

ان النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث يكشف لنا مرة اخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر ونيرون وكاليجولا فاذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويفزو ويسحق ويمحق . . وأن الفرق لهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادي يتم فى لحظات .

وفى ذلك يقول القرآن أن الارواح تبارح اجسادها عند النوم كما يحدث فى الموت ثم يعيدها الله فى اليقظة .

**« الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها
فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل
مسمى »**

(الزمر - ٤٢)

ويمتلىء القرآن بعديد من الآيات القاطعة بالقيامة والبعث بعد الموت .

**« والله انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم
اخراجا »**

(نوح - ١٧ - ١٨)

« انا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل
شيء احصيناه فى امام مبین »

(يس - ١٢)

« ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجساد الى ربهم
ينسلون »

(يس - ٥١)

« قالوا ياويلنا من بعثنا من مرفدنا هذا ما وعد الرحمن
وصلق المرسلون »

(يس - ٥٢)

« ان كانت الا صبيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا
محضرون »

(يس - ٥٣)

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون »

(المؤمنون - ١١٥)

« خشعا ابصارهم يخرجون من الاجساد كأنهم جراد
منتشر »

(القمر - ٧)

« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم
نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا
كما خلقناكم اول مرة بل زعمتم انن نجعل لكم موعدا »

(الكهف - ٤٧ ، ٤٨)

« فورك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول
جهنم جثيا »

(مريم - ٦٨)

ان الروح حقيقة .. وهى متجاوزة للجسد عليه عليه

لا يجرى عليها حدث الفناء . . فهي باقية خالدة لها يوم وميقات وأخرة تلقى فيها خالقها .
ولكن التبسيط المخل والبحث عن حل سهل خلاصا من مشكلة بلا جواب هو الذى دفع الماديين الى هذا التصوير المتهافت للانسان بأنه جسد ومجموعه ردود أفعال وأنه من التراب يأتى والى التراب ينتهى . . ولا أفهم كيف طاوعتهم نفوسهم على تصديق هذا الكلام فى عالم رائع محكم تشهد كل ذرة فيه بالنظام والجمال وتتسلسل فيه الاسباب الى غاياتها ويخدم فيه الموت الحياة ويفتدى الانسان بدمه كل لحظة أشد المثل والأهداف تجريدا . . ولا يذهب أى شىء هباء .
فكيف يذهب الانسان وهو أشرف المخلوقات هباء . .
ويتبدد سدى .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »
(المؤمنون - ١١٥)

« أيجسب الانسان أن يترك سدى »

(القيامة - ٣٦)

ويأتى احد الكفار الى محمد بقطعة من عظام ميت ويفرکها بين يديه فتصير ترابا . . ويقول للنبي :
- ابيعث ربك هذه العظام الرميم بعد أن صارت ترابا ؟
فينزل الوحي على محمد بالآية القرآنية :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »

(يس - ٧٨ - ٧٩)

يرد عليه القرآن بالحجة البالغة المسكتة . . انت تسأل كيف يخلق الله من الرميم وقد نسيت أن الله خلقك أنت من لاشىء . من

قطرة ماء ٠٠ وان القادر الذى خلقك مرة يستطيع ان يخلقك
مرة أخرى .

« أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن
يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

(يس - ٨١)

« أفعينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد »
(ق - ١٥)

وهل أعيانا أن نخلقكم مرة حتى يلتبس عليكم كيف نخلقكم
من جديد « كما بدأنا اول خلق نعيده » هكذا يقدم القرآن
قصة البعث فى بساطة شديدة وفى خمس كلمات .

ثم يروى لنا فى آية مثيرة كيف يكون قيام الموتى بعد رقدتهم
الطويلة فى القبور .

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »
(الروم - ٥٥)

ان الدهور التى لبثها الموتى فى قبورهم يخيل لهم لحظة
البعث انها كانت مجرد ساعة زمان وكأنهم كانوا فى غفوة أو
نومة عضارى بعد أكلة ثقيلة .

ان الروح والبعث حقائق مقررة ٠٠ ولكن قارىء اليوم يحب
أن يقتنع فى هذه المسائل بالبرهان الفلسفى .
ولعشاق الفلسفة نقدم دليلا آخر على وجود الروح من
الخاصية التى تتميز بها الحركة .

فالحركة لا يمكن رصدها الا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى نفس
الفلك ٠٠ وانما لابد لك من عتبة خارجية تقف عليها
لترصدها ٠٠ ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى أسانسير متحرك

لا نستطيع أن نعرف هل هو واقف أم منحرك ، لأنك أصبحت قطعة واحدة معه في حركته . . لا تستطيع ادراك هذه الحركة الا اذا نظرت من باب الاسانسير الى الرصيف الثابت في الخارج .
ونفس الحالة في قطار يسير بسرعة على القضبان . . لا تدرك حركة منل هذا الفطار وأنت فيه الا لحظة شروعه في الوقوف أو لحظة اطلاقك من النافذة على الرصيف الثابت في الخارج .

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض . . كما لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وانما نستطيع رصدها من القمر .
لا نستطيع أن تحيط بحالة الا اذا خرجت خارجها .

وعملية الادراك هي اثبات اكيد بأن هناك شيئين في كل لحظة . . الشيء المدرك . . والنفس المدركة خارجه .

ولهذا ما كنا نستطيع ادراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر .

ولو كان ادراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثواني أبدا . . ولانصرم ادراكنا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئا .
وهي نتيجة مذهلة تستدعي وقفة تأمل طويلة .

فها نحن أولاء أمام حقيقة انسانية جزء منها غارق في الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر معه ويشيخ ويهرم (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم . . ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية . . ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذي اطلقته الاديان وهو الروح .

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحي بداخله . .

ويدرك أنه وجود مغاير في نوعينه للوجود الخارجى النابض المتغير الذى يتدفق حولنا فى شلالات من التغيرات .

كل منا يستطيع أن يحس أن بداخله حالة حضور وديمومة وامتنال وشخص وشخصية حاضرة مغايرة تماما للوجود المادى المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه .

هذه الحالة الداخلية التى ندركها فى لحظات الصحو الداخلى والتى أسميتها حالة حضور . . . هى المفتاح الذى يقودنا الى الوجود الروحى بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذى اسمه الروح . . . أو المطلق . . . أو المجرد . . .

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح . . . وندرك الحق ونميزه من الباطل . . . وندرك العدل ونميزه من الظلم . . . فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار . . . بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى تقيسه . . . فنحن اذن نقيس من نفس العتبة . . . عتبة الروح . . . فالوجود الروحى يدل عليه أيضا الضمير ، ويدل عليه أيضا الاحساس بالجمال . . . وتدل عليه الحاسة الحفية التى تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح .

هل هذه العتبة خارج الزمن هى الابد ؟ . . . أم هى زمن آخر له تقويم مختلف . . . اليوم فيه بألف سنة . . . كما ورد فى القرآن « **وان يوما عند ربك كآلف سنة مما تعدون** » وكما جاء عن أيام الله . . . وهى أيام غير أيامنا ، ذهب المفسرون فى تفسيرها كل مذهب . . . كل هذه تفاصيل لا يمكن ادراكها . . . وهى فى الغالب مجرد اشارات ورموز تشير ولا تبين وترمز ولا تشرح . . . لأن بيان حقيقة الروح وكنهها أمر فوق مستوى ادراكنا . . . أما الحكم بوجودها فهو الممكن وهو الواجب والضرورى .

ولعل الروح هى طابع الحسن الذى تركه الخالق على كل منا كآثر من آثار يديه . . . ولعلها قيس من روحه اذ نفخ فينا من روحه . . . ولعلها شرارة مقدسة من نوره وشعاع من شمسهِ

الابدية .. ان الكلمات تعجز دائما عن التعبير اذا حاولت أن تحيط بهذا اللغز .

ونحن لا نبتعد بعيدا اذا عرفنا الروح داخلنا بأنها الحرية ..
حریتنا الداخلية العميقة الباطنة في أعماق السريرة والتي شاء الخالق أن تكون طليقة من كل قيد وحفظها من كل دخيل ووضع جنده خارجها وجعلها قدس الاقداس وحرما محرما على الجميع الا صاحبها .

فنحن في أعماق سرائرنا نشاء ونختار ونمتلك موهبة التقدير والحكم والتمييز ، ولهذا اخلفنا الله على الارض وجعل منا ملوكا صغارا تحكم .. وجعلها لنا محنة وامتحانا واختبارا وبروفة يكون بعدها سؤال وحساب واعادة ترتيب في مقامات يوضع كل واحد في مقامه الذي استحقه بجدارته .

ان منطقة السريرة هي منطقة المساءلة .. وفي الحديث الشريف (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى) .
ان منطقة النية والاضمار هي المنطقة التي يلاحظها الله بعلمه (وهو علم حصر لا علم الزام) ويقوم عليها حسابه لأنها منطقة الحرية .. وانما يبدأ الجبر وتبدأ القيود حينما ننطلق من السريرة الى الفعل ثم الى التحقيق في العالم المادي .. فتتصادم الحريات مع بعضها البعض ومع ظروف البيئة ومع المجتمع وتتدخل الارادة الالهية لتحد من شر الشرير ولتفسح المجال للخير ولتخفف من ضررنا على بعضنا البعض بمقتضى ما فيها من رحمة ولتمد كل واحد بمدد من الامكانيات من جنس ضميره واستحقاقه .

ولهذا يستوى عندي أن أقول أن الله خلق لي روحا .. وأن أقول . ان الله خلقني حرية .. أو خلقني فردا متفردا .

فكل عبارة منها تشرح الاخرى .. وتصف من الاعماق ما لا أستطيع أن أراه بالعين أو المسه باليد .. او اجد له الفاظا ومصطلحات .

وفى منطقة الروح لا نستطيع أكثر من اشارة ولا نجد أكثر
من رمز حيث نحن على عتبة خارج الزمن وخارج كل شيء
محسوس ومنظور .

**« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم
من العلم الا قليلا »**

(الاسراء - ٨٥)

وهي الروح التي تمضي الى مستقرها بعد الموت حيث يفصلها
عنا البرزخ الى يوم البعث .
وللماديين على اختلاف فرقهم . . نقول ما يقوله القرآن :

**« وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون
وانتظروا انا منتظرون والله غيب السموات والارض واليه
يرجع الامر كله »**

(هود - ١٢٢ - ١٢٣)

فالروح غيب .
وما بعد الموت غيب .
ولا نملك فيه الا ذلك الخبر الذي اتانا به نبينا الكريم من
لدى عالم الغيب الذي يرى ما لا نرى ويعلم ما لا نعلم .

لا كهنوت

كان الفرآن حاسما فاطعا في الغاء الكهنوت والوساطات الكهنوتية . . . وقرر في وضوح لا لبس فيه وفي عدة آيات متكررة . . . ان الصلة بين الانسان وربه صلة مباشرة . . . وأن الله يرعى شئون مخلوقاته مباشرة بدون مجلس ادارة وبدون سكرتارية وبدون وسطاء .

« قل لله الشفاعة جميعا »

(الزمر - ٤٤)

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان »

(البقرة - ١٨٦)

« وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل »

(الأنعام - ١٠٧)

« ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين »

(النحل - ١٢٥)

« يعذب من يشاء ويفخر لمن يشاء »

(المائة - ٤٠)

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال
ذرة في السموات ولا في الأرض »

(سبأ - ٢٢)

بل يقول لنبيه :

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين
مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله »

(التوبة - ٨٠)

الى هذه الدرجة يستحيل على نبي أن يبدل في حكم الهى
رغم الخصوصية والمقام الرفيع والقرب الذى ينفرد به النبي عن
باقى الخلق . . . فما بال الفرد العادى ، ولو كان هذا الفرد
اماما أو فقيها أو وليا يستوى الحال . . . فله الشفاعة جميعا . .
وما من شفيع الا من بعد اذنه .

ولهذا لم يظهر فى تاريخ الاسلام من يبيع صكوك الغفران . .
أو من يصدر أمرا بحرمان أحد من الرحمة بحجة الكفر
والضلال . . . لأن القرآن قطع بأن « ربك هو اعلم بمن ضل
عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين »

لا أحد يستطيع أن يرى ما بالقلب سواه .

ولهذا لم تقم لرجال الدين دولة ولم يقم لهم كهنوت ولم
ترتفع لهم وصاية على مصائر الخلق .

وبالمثل كان الجانب الطقوسى فى القرآن شديد البساطة ،
فالصلوات خمس ولها مواقيتها من صبح وظهر وعصر ومغرب
وعشاء (وهو تكرار لمجرد التذكير حتى يظل الله شاخصا فى
قلب المؤمن فيعصمه من الخطأ) ثم التفاصيل من اغتسال بالماء
للنظافة والتنظير وركوع وسجود لمغالبة كبرياء النفس والتذكير
بمقام المخلوق من الخالق . . . وهى نوع من الرياضة النفسية

والجسدية والتربية الروحية . . وفي اليوجا وهي موضه المثقفين
هذه الأيام تمرينات أعقد وأشق بمراحل ومع ذلك يتبارى
فيها المثقفون .

ورغم بساطة الطقوس فقد أباح القرآن اخنزالها اذا قامت
الوانع . . فمن الممكن استبدال الوضوء بمسح الوجه واليدين
بالتراب (التيمن) ومن الممكن الصلاة قعودا أو حتى رقادا بمجرد
اغلاق العين رمزا للسجود . . ومن الممكن نطق الآية في السر
بدل الجهر اذا قامت موانع من مرض أو غيره . . وبذلك تختزل
الصلاة الى مجرد ذكر في القلب . . بلا طقوس بالمره .
وأى مكان في الارض هو مسجد :

« فإينما تولوا فثم وجه الله »

(البقرة - ١١٥)

والصلاة صلة ، والله يأمر بها لنفع المخلوق . . وليس تسلطا
ولا ممارسة للالوهية فالله في غنى عن العالمين . . وانما نحن
المحتاجون اليه . . والصلاة وسيلتنا للاستمداد . . كما تتجه
زهرة عباد الشمس الى الشمس لتستمد منها الحياة . . كذلك
لا بد لنا أن نتجه الى منبعنا ومصدر طاقتنا وخالقنا اذا أردنا
أن نستمد الحياة والنور والالهام .
والصيام رياضة روحية وقهر للبدن وكبح والجم للعنصر
الحيواني في الانسان .

وفي كل أنواع الرياضات الصوفية هندية كانت أم مسيحية
أم بوذية يشترط الصيام . . وهو يتفاوت بين امتناع كامل
الى اقتصار على الماء الى اكتفاء بالأغذية النباتية . الى اجتناب
كل ما فيه روح . . الى فترة صيام محدودة بين فجر ومغرب
كما في الاسلام .

والصيام الاسلامي أبسطها .

والصيام يروض النفس على احتمال ما تكره ومقاومة
ما تحب . . وهو أساس الناموس الأخلاقي .

ولو لم يفرض الله علينا الصيام لهرضناه على أنفسنا لأنه
رياضة روحية ضرورية لتنمية الإرادة والصبر والمصابرة ..
لما ننمي عضلاتنا بالسباحة والجديف والألعاب السويدية ..
وكما ننقاطر ألوفا على ملاعب الكرة .

ومع ذلك فالله يرفع تكليف الصيام عن غير القادر ويبيح
الإفطار للمرض والمشقة ويجعل اطعام المساكين فدية مشروعة
للمعطر .

أما الضجة النى أيرت والكلام الكير الذى قيل حول افامه
الحد فى القرآن بقطع يد السارق فهى ضجة مفتعله .. لان
الآية تفسح المجال للعفو عن التائب فمن يسرق ويقول صادقا
تبتولن أسرق بعد الآن يعطى لولى الامر مجالا لرفع الحد عنه .

**« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه
ان الله غفور رحيم »**

(المائدة - ٣٩)

ومن سرق للجوع أو للحاجة لا يصح شرعا افامه الحد عليه
حتى لو كان يسرق عن اصرار وعمد . فلا يبقى بعد هذا الا
السارق الذى يسرق دون احتياج نم يتبجح رغم هذا ويرفض
أن يتوب .. وهو اما حاله عقليه توضع فى مستشفى المجانين ..
أو جبار يجب قطع دابره لا قطع بده فقط .

وفى نصر العانون السوفيينى توقع عقوبه الاعدام على من
يسرق ويخنس مال الشعب .. وتتنشر أخبار أمثال تلك
المحاكمات فى الجرائد الرسمية .

وفى الإنجيل « ان أعثرتك يدك فاقطعها وان أعثرتك
(أى أرقعتك فى خطيئة) عينك فاقلعها » .
والقرآن أرحم .

أما النقد الذى وجهه المستشرفون لموقف القرآن من مشكلة
الرقيق فهو نقد مردود عليه . فان تسريع الرقيق فجة
وبتشريع منزل فى مثل الحالة الاجتماعية التى كان عليها عرب

الجاهلية . . كان معناه خروج آلاف المتسولين الى الطبريق بلا مصدر رزق وبلا صناعة أو زراعة تستوعبهم وهي كارثة وليست حلا .

والحل الأمل هو الذي نزلت به الآيات بآلا يكون هناك مزيد من الاسترفاق . . وكان مصدر الرقيقهم أسرى الحروب وكانت وصية القرآن تسريح الأسرى أو طلب الفدية فيهم : « فاما منا بعد واما فداء » بلا استرفاق . . أما الموجود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج . . اذ جعل القرآن فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها . . وجعلها وسيلة تطهير للنفس واقتحام لها .

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »

(البند - ١١ - ١٢ - ١٣)

تحرر نفسك بأن تفك عنها أعلال استعبادها للآخرين . . نبلغ الحرية بأن تحرر غيرك . . وأنت بذلك تقتحم على نفسك شهواتها . وهي العقبة الكبرى . . فلا عقبه أمامك سواك أنت بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق وعمل على تصفيه الموجود . وإذا كان ما حدث في أيام الدولة الأموية هو العكس فليس الذنب ذنب القرآن . . وإنما ذنب النظام الذي تفسخ رقصور الخلفاء التي تحولت الى مسارح للمتعم الحسية على الطريقة الفارسية .

أما القرآن فهو روحا ونصا يؤكد الاخوة بين جميع بني البشر مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

(النساء - ١)

« انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

(الحجرات - ١٣)

« ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله »

(آل عمران - ٦٤)

أزامر صريحة بآلا يستعبد انسان انسانا . . . و يقيم من نفسه ربا والها عليه . . . وبأن الكل أسرة واحدة من أب واحد . . . لا يرفع واحد على آخر إلا بنقواه .
واحق أن الارق الذي كان على أيام العرب لا يساوى واحدا من ألب من رق شعب كامل مثل الشعب الألماني أيام حكم هتلر . . . يحدث هذا فى أوروبا . . . وفى ذروة القرن العشرين .



والدين فى القرآن ايمان وأخلاق وعمل صالح .
وهناك تركيز على الاخلاق والتعاليم الاخلاقية من أول صفحة فى القرآن الى آخر صفحة ، والاستدلالات على ذلك لا تنتهى .

« ان الله يامركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

(النساء - ٥٨)

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا (لاتدفعكم الكراعية الى تحامل) اعدلوا هو أقرب للتقوى »
(المائدة - ٨)

« ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا »

(الأسراء - ٣٢)

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

(الأنفال - ٤٦)

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »

(النحل - ١٢٥)

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق نبأ فتبينوا ان
تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »
(الحجرات - ٦)

« ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في
الدنيا والآخرة »
(النور - ٢٣)

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان
يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا
منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا باللقاب بس
الاسم الفسوق بعد الايمان »
(الحجرات - ١١)

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى
تستأنسوا وتسلموا على أهلها »
(النور - ٢٧)

« وأوفوا بالعهد ان العهد كان مستؤلا »

(الأسراء - ٣٤)

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض
الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب
أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »
(الحجرات - ١٢)

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام
الله ثم أبلغه مأمنه »

(التوبة - ٦)

وفى أدب الحروب وأخلاق الحروب يأتي القرآن بأجمل

دستور :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا
فلا تولوهم الادبار »

(الانفال - ١٥)

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان
مرصوص »

(الصف - ٤)

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن
منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم
لا يفقهون »

(الانفال - ٦٥)

« قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل واذا
لا تمتعون الا قليلا »

(الأحزاب - ١٦)

« قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا او
اراد بكم رحمة »

(الأحزاب - ١٧)

« قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم ثم تردون الى
عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

(الجمعة - ٨)

وفى الحيانة الزوجية يذكر القرآن هذه الآيات :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط
كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا
عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين »

(التحريم - ١٠)

وفى النفاق :

« يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون »

(الصف - ٢ ، ٣)

« ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا »

(النساء - ١٤٥)

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون »

(التوبة - ٦٧)

وفى البخل والانفاق :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

(آل عمران - ٩٢)

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

(الحشر - ٩)

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »

(الاسراء - ٢٩)

وفى الغرور والتواضع والرحمة :

« ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا »

(النساء - ٣٦)

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »

(الاسراء - ٢٤)

وفى العفو :

« وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم »

(النور - ٢٢)

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة »

(المؤمنون - ٩٦)

« ولئن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور »

(الشورى - ٤٣)

وفى آيات جامعة يجمل هذه التعاليم الحيرة .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

(البقرة - ١٧٧)

ولئن تنتهى الامثله ، فالقرآن كله وثيقه اخلاقيه .
وقد يعترض معترض فيقول : لسنا فى حاجة الى قرآن
لنكون على أخلاق . والانجليزى فى لندن هو نموذج للاخلاق
الحسنة دون أن يقرأ قرآنا ولا انجيلا ودون أن يؤمن بأى دين
بالمرة .

وصاحب الاعتراض لا يميز بين نوعين مختلفين من الاخلاق .
نوع من الاخلاق هو فى حقيقته ذكاء اجتماعى وليس أخلاقا
وهو أشبه بذكاء البقال الذى اكتشف أن حسن المعاملة
بضاعة رابحة فى ذاتها وأنها تكسب له قلب الزبون وجيبه
فهو يعطى المحبة ليقبض محبة .

ومثل هذه الاخلاق تنبعث من عقل نفعى ذكى ويربيها الاب
فى ابناؤه على شكل عادات حميدة ويعتبرها جزءا من وسائل
كسب الاصدقاء والنجاح فى العمل . . . فهى من اولها الى
آخرها نوع من الحرص على الدنيا واقتان كل وسيلة الى امتلاكها .
وما يربيه الدين من اخلاق مختلف عن هذا تماما ، بل يكاد
يكون عكسه فالمتدين يرى الدنيا عرضا زائلا لا يستحق ان
يحرص عليه ومحبة الله ولقاؤه هى دائما هدفه . . . وهو لهذا
يعطى المحبة من القلب للجميع دون ان ينتظر عليها جزاء من
مخلوق . . . وهو يعطى ماله ووقته وصحته دون نظر الى جدوى
لان ما يعطيه لا يساوى فى نظره شيئا يذكر . . . وهو لا يشعر
بالدنيا التى تتسرب من يديه لان عينيه على الآخرة ، على رضا
الحال لا على رضا المخلوق .

وهو لهذا يمكن ان يحب عدوه ويمكن ان يبذل له النصيح
والمعونة . ويمكن ان يعطى وهو محتاج ويتصدق وهو فقير
ويطعم وهو جائع . . . وهذه هى الاخلاق الحقيقية .

وهى لا يمكن ان تكون الا للمؤمن ، ليس شرطا ان يكون
المؤمن مسلما ، وانما يمكن ان يكون مسيحيا .
ولكن مثل هذه الاخلاق لا يمكن ان تكون لرجل مادي بلا
دين . والرجل المادي فى أحسن الحالات رجل مهذب حسن
المعاملة بحكم ذكائه الاجتماعى وبحكم فطنته الى قوانين النفع
والضرر وهو يحب بعقله ولهف وغاية .

واذا أحب المادى بالروح والقلب ، وأعطى للمطاء فهو
متدين فى أعماقه وهو مخدوع فى نفسه اذ يضع نفسه مع
الماديين . . . وسوف يأتى اليوم الذى يفتن فيه الى ولائه الحقيقى
والى انتمائه .

والقلب دائما هو المؤشر الحقيقى ، وهو أحسن من يدلك
على مكانك .

• وهل انت مع المؤمنين أم مع الماديين •

وما اكثر المتدينين الذين يصلون ويصومون وهم عمى القلوب
غلاظ الارواح ليس لهم من الدين الا بطاقة الميلاد •

وما أكثر من يضع على صدره بطاقة المفكر المادى وهو ابعد ما
يكون بالقلب عن التفكير المادى والعقلانية •• وهو بروحه
مسيحى شفيف الوجدان أو مسلم متدين القلب •• وضع
نفسه فى الطابور الخطأ ليلبس أمام نفسه وأمام الآخرين ثوبا
عصريا وبشعر بنفسه مع الموضه •

ومعرفة الانسان لنفسه صعبه وشاقة وأحيانا لا يكتشف
الانسان حقيقته الا عبر معارك وطريق شائك •

والصراط المستقيم الذى تكلم عنه القرآن هو هذا الطريق
الشائك الى معرفة النفس ثم الاتجاه بها الى خالقها • انه طريق
الهجرة ، عودا من مستقر التراب الى منبع الحق والنور •

وليس أجمل من كلمات القرآن دليلا مرشدا الى هذا
الطريق •

لا إله إلا الله

لا موجود بحق الا الله .

أنا وانت وهو وهم ونحن كلنا مجرد صور تيرق وتختفى
على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون
ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار . . ثم تعود فتتجمع صور
أخرى عند وصل الكهرباء . . ثم تعود فتزول هي الأخرى . .
وهكذا دواليك تتعاقب الأعصر والدهور كما تنبت أوراق
الأشجار الحضر في الربيع ثم تعود فتسقط في الخريف . .
وتتراكم الأوراق الميتة كما يتراكم الموتى بعضهم فوق بعض
ترابا .

رب لحد قد صار لحد مرارا
ضاحكا من تراحم الأضداد
ودمين على بقايا دفين
في طويل الأزمان والآباد

حتى ليصبح أديم الأرض بعد ملايين السنين هو أجدادنا
« خفف الوطء ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد »

ومن تحت ركام التراب يستخرج الحفارون مكحلة •• ينظر
اليها خبير الآثار فيقول انها مكحلة اخت الحاكم بأمر الله وعمرها
تسعمائة سنة وفيها بقايا كحل •
اين اخت الحاكم بأمر الله ؟

واين عصرها ؟

أنت تكاد تسمع خطوات الجوارى •• وترى الماشطات
والوصيفات •

وعن بعد تصطك سيوف الحراس •• وبرنفع صوت مؤذن
وتصهل الخيول •• وينادى أغا القصر على رسول قادم
من قادش •• ويقبل علينا الحاكم بأمر الله فى هيلمان الخدم
والحشم •

أين كل هذا •

تحت الردم •• انتهى •• أصبح ترابا •• كان حلما فى
مخيلة الزمان وغدا نصبح أنا وانت تحت الردم •

ويصبح عصرنا سطر فى كتاب •• وحلما فى مخيلة مؤرخ •
ويعثر الحفارون على علبة سجائر فى التراب فيؤلفون قصة
عن أمير مات مسموما بدخان التبغ •

وتضيع الحقائق كما ضاع أصحابها •
فالكل الى موت •

الممثل والجمهور والناقد والحقيقة •• لانه لا حقيقة سوى
الواحد الأحد الحى الذى لا يموت •

« انك ميت وانهم ميتون »

(الزمر - ٣٠)

افتى الى نفسك فانت غير موجود •• انت ظل •• وشأنك
شأن الظل •• موجود على الارض مادامت الشمس فى كبد السماء
فاذا غربت لم يعد لك وجود •• واختفت معك كل الظلال
التي كانت تتناول بأعناقها الى جوارك •

وجودك كان يعتمد على مدد من سواك .. فهو وجود غير حقيقى .. وجود مفتقر الى غيره .. أنت موجود بالله وبالمدد الذى يمدك به .. فاذا قطع عنك المدد انتهى أمرك .

أما الله فهو موجود بذاته .. ومستغن عن غيره .. وعن كل الاغيار فهو الموجود بحق .. لا موجود بحق سواه .. ومن ثم .. « لا اله الا هو » .. منه ينبع الكل واليه يعود الكل .. وهو الباقي أبدا وماعداه زائل دواما .
وينزل الوحي على محمد ليقول له :

« فأعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك »

(محمد - ١٩)

ويقول له فى سورة النحل عن الله :

« ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون »

(النحل - ٢)

انه أول وأهم خبر تاتى به السماء .
« لا اله الا الله »

وهو قلب القرآن وقلب الاسلام وقلب كل العقائد .
ومن هنا كان الحديث النبوى الشريف « خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلى هى كلمة لا اله الا الله »
وهى « كلمة التقوى »

« فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما »

(الفتح - ٢٦)

وكلمة التقوى هى لا اله الا الله .

• وهي تسبيحة الملائكة في الملأ الاعلى •

وهي الشهادة ينلوها كل مصلى عشر مرات كل يوم في صلواته وهي كلمة النجاة ينطقها السعيد في حشجة الموت قبل أن يلفظ آخر انفاسه •

وهي كلمة النذير بأن كل شيء الى فناء وبأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها ان تفك وتعاد الى علبتها •• وهي كلمة لو اصبحت دستور الحياة كلها فانها كفيhle بتغيير هذه الحياة الى نهج أشرف وأجمل وأصدق •• الى حياة لا عبرة فيها الا بالقيم الباقية •

« لا اله الا الله •• اذن لا معبود الا الله »

ولن يعبد بعضنا بعضا •• ولن يتخذ بعضنا بعضا اربابا ولن نقتل على شيء وقد أدركنا أنه لا شيء هناك •

ولن يأخذنا الغرور وقد أدركنا اننا خيالات ظل تموج على صفحة الماء ••

ولن نفرح بشراء ولن نحزن لفقر ولن نتردد أمام تضحية ولن نجزع أمام مصيبة فقد أدركنا أن كل هذه حالات عابرة

وسوف تلهمنا هذه الحقيقة أن نصبر على أشد الآلام •• فهي آلام زائلة شأنها شأن المسرات •
• لن نخاف الموت •

• وكيف يخاف ميت من الموت •

ولن يخاف بعضنا بعضا •• وكل واحد فينا قد عرف أنه ليس الا خيالاً لا يرهب الا العصافير •

• وسوف نحب ونعطي في تواضع •

• وسوف نصمد ونقاتل في شجاعه •

• وسوف نتلقى أوسمة المجد في خجل •

• وسوف نستمتع الى كلمات المديح والاطراء في حياة

• وسوف نتحمل بغير حدود •• ونضحى بغير حدود •

لن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا الميكروب ولا المرض ..
لأننا أدركنا وحدة الفاعل .. وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله
وكل هذه أسباب .. الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار
النافع .. وهو الذي يسلط الأسباب .. هو الذي خلق العقرب
والسم والوردة .. وهو الذي ينشر العبير وينشر السم في
العروق .. هو مناط الهلاك ومناط النجاة .. لا راد لقضائه
ولا معقب لأمره .. هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته .

وسوف تمتلئ قلوبنا سكينه وطمانينة وأمنا .. فقد أدركت
هذه القلوب ان مددها من الحى الذى لا يموت .

ومن يؤمن بأن القوة كلها لله ومقاليد الامور بيد الله سوف
يكون متوكلا .. والتوكل غير التواكل .

التوكل يقتضى العزم وجمع الهممة وبذل قصارى الجهد مع
التفويض دائما واسلام الأمر الى المشيئة فى نهاية المطاف فيكون
نجاح المسعى أو فشله أمرا مقدرًا كما أن الجهاد ذاته كان مقدرًا .

« فإذا عزمتم فتوكل على الله »

(آل عمران - ١٥٩)

وانما يختلف المتوكل عن الرجل المعتد بنفسه بأنه متبريء
من الحول والطول .. يعمل فى نشاط ثم يرجع نجاحه الى الله
لا الى ثمره يديه .. ويسمى نجاحه توفيقا .. لا أحرًا إذا أحرزه
بارادته .

ويقول عن عمل يديه انه كان سببًا ضمن عديد الأسباب
التي يسرها الله ليوفقه الى ما صار اليه .
أما الرجل المعتد بنفسه فيتصور أن كل ما بلغه فى حياته
كان بذكائه ونشاطه ويقظته ولا يتصور وجود ارادة أخرى غير
ارادته تعمل فى حياته أو فى الكون .

والتواكل انسان ثالث مختلف عن الاثنين فهو انسان متقاعد
كسول فاتر العزم فاتر الهممة لا يحرك ساكنًا ويريد من الله

أن ينجز له كل شيء • ومثله مثل اليهود الذين دعاهم موسى ليقاتلوا معه فقالوا •

« فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون »

(المائدة - ٢٤)

والتوكل يثق في نفسه ويثق في الله •
أما المتوكل فلا يثق في نفسه ولا يؤمن بالنظام الذي اقامه الله وربط فيه كل شيء بسلاسل من الاسباب وجعل من العزم سببا ضروريا لانجاز أى شيء •

ومثل المتوكل الصادق مثل المسافر الذي يفكر في السفر الى الاسكندرية فيسارع في همة ونشاط الى حجز التذكرة ثم يحزم حقائبه ويهرول الى القطار في ميعاده •• حتى اذا استقل مقعده من القطار اسلم امره الى السائق وقد وثق تماما في قدرة هذا السائق ومهارته وفي دقة الفوائن التي تجرى على وفاقها عجلات القاطرة •• وبلغ من هذه الثقة وهذا التسليم انه •• نام مطمئنا في مقعده كطفل •• ولو انه قام منزعجا ليقف وراء السائق ويتدخل في قيادته للقاطرة •• لاعتبره الناس رجلا أحمق يتدخل فيما لا يعرف •

ونحن في الدنيا مثل هذا المسافر نحاول في همة ونشاط أن نحجز لانفسنا أحسن الأمكنة في هذه المركبة التي اسمها الدنيا وفي نفس الوقت نسلم الأمر في ثقة وتوكل تام الى السائق الذي يقود هذه الدنيا ونثق في قوائمه •• وهو الله القادر الذي تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين •

وتملأ هذه الثقة قلوبنا ونحن نعمل ونجاهد فنمتلىء سكينه وطمأنينة وأمنا بأن العدل يجرى مجراه وأن كل واحد يأخذ ما يستحقه فلا نحزن على فشل ولا نفتر بنجاح •• ولو استولى علينا الانزعاج لما يجرى علينا من أقدار لكان هذا الانزعاج هو دليل عدم إيماننا وعدم ثقتنا في القائد •

أما المتواكل فهو مسافر من نوع آخر يفكر في السفر دون أن يحتشد لهذه الفكرة بأى عزم فلا هو يسارع الى حجز تذكرة ولا هو يبادر الى حزم حقيبة . . . وإنما يقول لك أنه مؤمن بالله . . . ومعتمد على الله . . . وأن الله سوف يرسل له من السماء ثمن التذكرة أو يسوق اليه من يتطوع بحمله مجاناً في عربته . . . وتكون نهايته بالطبع أن يبقى حيث هو في فراشه . . . ويلقى ذنب فشله على الله . . . أو يقول انها ارادة الله وأنه يقبلها لأنه مؤمن . . . والواقع أن تصرفاته لا تدل على ايمان . . . فمن يؤمن بالله لا بد أن يؤمن بنظامه الذى أقامه فى الدنيا وربط فيه الاسباب بالمسببات . . . وجعل من العزم والعمل مقدمة ضرورية وسبباً لازماً لانجاز أى شىء . . . وأمر بالعمل أمراً .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم »

(النبوة - ١٠٥)

والنوكل مقام عظيم لا يستطيع أن يبلغه الا متصوف ومؤمن نابت القدم يؤمن بحق أنه . . . لا اله الا الله . . . ولا مرید فعال منيمن الا الله .

وهو يثق فى الله ويحب الله ويحب نظامه ويرضى ما شرط من تكاليف وأعباء فيحمل التكليف وينهض بالعبء ويبذل غاية الجهد وقد فوض الامر فى كل لحظة الى الله لا يهمله أن ينجح المسعى أو يفشل فهو واثق فى الخالين أنه سيصيب ما يستحق وأن الله هو الحكم العدل الذى لا يظلم أحداً فاذا أصاب النجاح نفض يديه من غرور هذا النجاح وتبرأ من فضله وأنكر دوره وقال فى تواضع . . . ما أصبت هذا الا بفضل الله . . . وما حدث الذى حدث الا لأن الله أراد وهياً الاسباب . . . وما كنت أنا وما كان عملي الا سبباً ضمن ما هياً الله من أسباب . . . له الحمد فى الاول والآخر . . . واذا أصابه الفشل لم يتغير ولم يتحسر ولم يندم على فوت وقال فى ثقة . . . بل هياً الله لى الصالح .

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

(البقرة - ٢١٦)

وهو في كل لحظة يتذكر ويذكر نفسه .. بأنه لا يعلم ..
ويأن الله وحده هو الذي يعلم .. فلا يصح الاعتراض على
مشيئته . انه رجاء دائماً الى الله معتمد عليه مكافح برغم ذلك
أبداً باذل وصارى الجهد والطفاه مؤمن بأن هذه سنة الله في
خلقه .

ان كلمة لا اله الا الله بالمسببه له ليست حروفاً ولكن منهج
حياة وريعة قلب .

لقد جعل منها دليلاً ونوره الذي يمشى عليه .. ولهذا كان
متبرئاً في كل لحظة من حوله ودونه .. فهو يؤمن بأنه لا حول
له ولا قوة .. وأنه لا حول ولا قوة الا بالله .. فهو الوحيد
القادر .. وهو الوحيد الموجود بحق .

وهذه هي النفوى .

ولهذا كانت كلمة « لا اله الا الله » في القرآن هي كلمه
التقوى لأنها تورث النفوى .

ومن يقولها ويتمل معناها عقلاً وقلباً ويجعلها منار حياته
فقد امسك الدين كله .

ويقول الله عنها في حديث فديسي :

« لا اله الا الله » حصنى ، فمن قالها دخل حصنى ، ومن
دخل حصنى أمن عذابي .

وهي فاتحة التسابيح يبدأ بها المتصوفة عهودهم وأورادهم
وتسبيحاتهم لأنها كلمة التعريف بالله وبأنه لا موجود بحق
الا هو .. وكل ما عدا وجوده فهو من قبيل الوهم والسراب
وخداع الحواس .

هو الحى الباقي يعطى الحياة لكل ولا يستمد حياته من احد

وهو النور ، به نرى الاشياء .. نور العين ونور العقل
ونور القلب .

وهو الحق وما عداه باطل .

وهو المتعال .. ملء الارض والسموات ومتجاوز لها ومتعال
عليها لا يتحيز في مكان ولا يتحدد بزمان
وهو القوي بلا نهاية
والموجود بلا بداية .

وهو الواحد الاحد المرتجى .. لا يرتجى غيره ..

سبحانه لا اله الا هو نقدرت ذاته .. وجلت ونزهت عن
الاصناف .

ليس كمنله شيء في السماء ولا في الارض .

أحاط بالابصار ولم تحط به الابصار .

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

تقدس عن أن تكون له صاحبه ولا ولد .. وكيف يحتاج
الى ولد .. وهو الذي بيده ملكوت كل شيء .. وهو الغنى
المستغنى الجبار القهار المهيمن على العالمين .. يبدأ الخلق ثم
يعيده بكلمة منه .. وتنفذ البحار ولا تنفذ كلماته .

احتجب عنا من فرط اشرافه وعاب لفرط دوامه واختفى
لفرط ظهوره .

منه المبتدا واليه المآب والمنتهى .

ولا سلام الا في معيته ولا سكينه الا في حضرته .

هو مولانا وربنا وسع كل شيء رحمة وعلما .

ما قدرناه حق قدره .. ولا نستطيع ولو أردنا .. وكيف
نحصى ثناء عليه ونحن لا نحيط بفعله ولا بعلمه ولا بآثاره ،
فلا طاقة لنا بحمده .

ولهذا حمد نفسه بنفسه في فاتحة كتابه فقال : « الحمد لله

رب العالمين »

هو الخامد والمحمود لأنه وحده الموجود بحق .. وما نحن
الا فيض كرمه .

وهو الوحيد الفادر على الحمد لأنه الوحيد العالم بخفيايا
أفعاله وما نحن الا سهود لذرة واحدة من ذراته هي الأرض
فى سماوات لا تتناهى آفاقها .

وهو اللطيف الكريم فد ارتضى لنا هذه الصيغة لنحمده بها
فنقول « الحمد لله رب العالمين » فى بداية كل صلاة .

وهو قد علمنا انه قد خلق العالم باسمه الرحمن الرحيم
لا باسمه القهار الجبار .. فهو قد خلقه بالرحمة .. بل
بمطلق الرحمة (والرحمن هو من يسبغ مطلق رحماته على كل
ما يخلق ما يستحق الرحمة وما لا يستحقها) فنقول فى بدء
كل شىء . « بسم الله الرحمن الرحيم »

لأنه باسمه الرحمن الرحيم بدأ الخلق فأوجد كل شىء
رحمة لا قهرا : كتب على نفسه الرحمة .

وقال عن نفسه فى حديث قدسى : « سبقت رحمتى غضبى »
وهو فى « الفاتحة » الرحمن الرحيم أولا ثم مالك يوم
الدين ثانيا ويوم الدين هو يوم الغضب والحساب ويوم يدان
الانسان بما قدمت يداه .

« ولا اله الا الله » تشتمل فى داخلها على مطلق التوحيد .
وفى الفاتحة آيات جميلة تحشد الانتباه لتتوجه به الى ذلك
الواحد .

« اياك نعبد و اياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم »

انت وحدك الذى نعبد

وأنت وحدك الذى نستعين .

وأنت وحدك وسيلة الهداية الى الصراط المستقيم فاهدنا
اليه .

والصراط المستقيم هو الطريق المؤدى الى الله والى الحق
والنجاة .

ولهذا كانت الفاتحة هي تعريف بالله وبالطريق اليه في
ايجاز بليغ يلخص مضمون القرآن كله في سبع آيات ..
فما القرآن كله في جوهر الامر الا تعريف بالله وبآخرفته
وبالطريق اليه .

والله في القرآن ذات وأسماء وصفات وأفعال .
وأفعال الله هي الكون كله بما فيه من سماوات وأرضين
ومخلوقات .

والجنة والجحيم والآخرة هي بعض ما خلق .
والطريق الى الله في القرآن وسيلته العبادة والشريعة
والمحبة .. وهذا هو الصراط المستقيم المؤدى الى النجاة .
والفاتحة توجز كل هذه الحقائق وتقدمها في سباعيه من
الآيات أشبه بسيمفونية ذات نغم رحمانى جميل .. ولهذا
قال نبينا عن الفاتحة أنها أفضل القرآن وعن آية الكرسي أنها
سيدة آيات القرآن وعن سورة ياسين أنها قلب القرآن .
والذى يقرأ القرآن في تفكر وتأمل يشعر أنه خرج جميعه
من بذرة واحدة هي كلمة « لا اله الا الله » تفرعت وأورقت
وأثمرت شجرة القرآن كله .

من التوحيد نشأت كل أعداد المعارف والعلوم .

يبدو هذا في آية رائعة مثل آية الكرسي التي تبدأ بالتوحيد
ثم تتسلسل الى صفات ذلك الواحد القيوم .

**« الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم
له ما فى السماوات وما فى الارض من ذا الذى يشفع
عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات
والارض ولا يؤوده (ولا يشق عليه) حفظهما وهو
العل العظيم »**

(البقرة - ٢٥٥)

وأكثر من سورة وأكثر من آية في القرآن نبدأ بكلمته
التوحيد أو تنتهي بها أو تنتهي اليها . كل شيء يبدأ من
الواحد وينتهي في آخر الامر راجعا اليه .
ونعلم من أوليات الحساب أن الواحد ينقسم الى ما لانهاية
فيعطى جميع الاعداد والكسور والاجزاء .
والله الواحد يعطى كل الاعداد من كل شيء ولكن دون أن
ينقسم ولهذا قال عن نفسه أنه الاحد .
والاحد هو الواحد الذي لا يقبل القسمة او التجزئه
ولا يتألف من أعضاء . . فهو أحد . . كامل متكامل بذاته ،
لا يمكن أن يكون له بعض . . وانما هو دائما كل .
ولأنه أحد ولا يمكن أن يكون اثنين بالقسمة او بالتكاثر ،
فهو « السلام » . . لا تقوم فيه حرب أو صراع . . لأنه لا يمكن
أن تقوم حرب الا بين طرفين . . وهو دائما أحد .
ولهذا كان من أسمائه الحسنى . . انه « السلام » .
ولنبلغ السلام نحن أيضا لا طريق لنا الا أن نتوحد فيما
بيننا كدول وأمم وطوائف .
ولا يمكن أن يحقق الفرد منا سلامه الداخلى الا اذا توحد
داخل نفسه فتوحدت رغبته مع عقله مع ارادته مع هدفه . .
وهذا لا يتم الا اذا توحد مع الله ذاته . . وذلك بأن يكون مع
الله بالمعنى الصوفى . . أى على الصراط المستقيم المؤدى الى الله .
والاعداد والحروف لها علم عند الصوفية .
وكل رقم له دلالة . . وكل حرف له رقم يقابله . . وبعض
الارقام لها قدسية خاصة . . مثل رقم ٧ ، فان السموات سبع
والارضين سبع والأوان الطيف سبعة ودرجات السلم الموسيقى
سبع وأيام الاسبوع سبعة وأبواب جهنم كما جاء في القرآن
سبعة وآيات الفاتحة سبع . . والله يسميها في كتابه السبع
المثنى .

والحروف لها أسرار هي الأخرى .

وحرف مثل حرف « الماء » نراه يدخل تلقائياً في تركيب كل الكلمات التي تشترك في معنى السخونة مثل :

حب ، حرب ، حريق ، حرارة ، حر ، حمى ، حميم ، حلو ، حراق ، حريف ، حار .

وهذا يعنى أن الحرف له خاصية في ذاته ومعنى في ذاته . ودلالة في ذاته . . . بغض النظر عن الكلمات التي يدخل فيها .

وهذا دليل قاطع على أن الحروف التي نزلت في بداية السور مثل ألم . . . طسم . . . كهيعص . . . حم . . . طس ، ق ن . . . ص . . . هي حروف لها معنى في ذاتها . . . وكلمات لها سرها ومدلولها وان غاب عنا فهمها .

وهي علوم عليا سوف نصل اليها فيما بعد .
ولا يوجد في القرآن حرف زائد ولا حرف ناقص ولا حرف في غير مكانه . . . وكل حرف له حكمه .

والله هو المعلم الاول . . . « الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

(العلق - ٤ ، ٥)

هو الذي الهمنا الحروف وعلمنا بعض أسرارها .
ويقول القرآن عن كاتب الشهادة « ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله »

وفي سورة البقرة « واتقوا الله ويعلمكم الله »

فالله هو المعلم وما الجامعات والمدارس والمكتبات والكتب إلا أسباب ووسائل . . . لكن الله هو الواهب الحقيقي للعلم فهو الذي أعطانا النفس القابلة للتعلم والعقل المدرك والذاكرة الحافظة ثم الهمنا الحق والحرف والكلمة .

وانا لنجد كلمه واحده مثل « أم » تتشابه في جميع اللغات بين عربية وانجليزيه وفرنسيه حتى في لغة النيام نجد لها نفس التركيب • فهي أم ، وماما ، ومامي ، وموما •
و « موما » هي كلمة « أم » بين زنوج النيام نيام •
وبالمثل الأب : أب ، بابا ، بابي ، بوبا •

وهم ينادون « الاب » ، « بوبا » في قبائل النيام نيام •

وهذا التشابه بالرغم من نباين الاماكن والاقطار يدل على وحدة المصدر وعلى أننا نلقينا الحروف الاولى الهاما •• واننا أدركنا بعض مدلولات تلك الحروف وأسرارها واستخداماتها من نفس المصدر • واشتراك حرف الباء في جميع ألفاظ الاب يكشف عن خاصية سر ومدلول في لفظ الباء •

وبالمثل حرف الميم في لفظ الام •

وكل حرف من حروف اللغة له خواصه التعبيرية وأسراره •
ونحن لم نتعلم من هذه الاسرار الا القليل •

وحيثما يطالعنا القرآن بتلك الحروف المطلسمه في بدايات السور أمثال •• طسم •• كهيعص •• حم •• طس • فانه يطالعنا بأسرار بالفعل ، وليس بمجرد حروف تشابكت كيفما اتفق ، وانما هي بعض التحديات التي تحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتي تأويلها في آخر الايام •

ونظريات المفسرين في هذه الحروف كثيرة ومختلفة •

البعض يقول ان الله يقسم بهذه الحروف في مطالع السور •
والبعض يقول أنها تؤلف فيما بينها اسم الله الاعظم الذي احتفظ بسره لنفسه •

والبعض يقول أنها مجرد مفردات •• يقول لنا الله أنه خلق منها ومن مثلها القرآن •• فيقدم لنا لبنات البناء وخاماته.

قبل أن يرينا البناء في كماله وتمامه .. على سبيل الإعجاز ..
وكلها ضروب من التخييط .

وأولى بنا أن نقول : لا نعلم .

وما كان لنا أن نحيط بالقرآن في جيل واحد أو أجيال ..
وقد نزل القرآن لكل العصور .. ليبوح بسرّه على مدى عمر
الدنيا فيكشف كل مفسر بقطرة من بحرّه .

وما زال القرآن يعطى كل من جاهد في تفهمه .. وما زال
يفتح قلبه لكل من فتح له قلبه .

لماذا.. أعجاز القرآن

القرآن كتاب حافل بالنبوءات .
ومن هذه النبوءات ما تحقق في وقته .
ومنها ما هو في انتظار ميعاده .
عن وقعة بدر ١٠ وهي وقعة حربية التقى فيها المسلمون
وهم قلة بكثرة هائلة من جند الكفار نزل الوحي مبشرا :

« واذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم »

(الأنفال - ٧)

« سيهزم الجمع ويولون الدبر »

(القمر - ٤٦)

وقد حدثت .

وقبل دخول مكة . . . حينما كانت العودة إلى الكعبة حلما
بعيد التحقيق يراد المسلمين في مهجرهم بالمدينة . . . جاء
الوحي ليؤكد ما جاءه النبي من رؤيا . . .

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد

الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم »

(الفتح - ٢٧)

وقد حدث .

وعن انتصار الروم بعد هزيمتها نزلت النبوة :

« غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون في بضع سنين »

(الروم - ٢ ، ٣ ، ٤)

ولفظ بضع يستعمل في اللغة لما هو أقل من عشرة وأكثر
من ثلاثة . . . وقد حدث أن انتصرت الروم بعد سبع سنوات
من هزيمتها .

ثم وعد اسرائيل الذي قال فيه القرآن مخاطباً اليهود :

« لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً »

(الاسراء - ٤)

وهاهي اسرائيل تعلق وتطغى للمرة الثانية علوها الكبير
الذي تحلم فيه باجتياح النيل والفرات . . . وهو علو الى
انخفاض وهزيمة كما قال القرآن .

هذا غير نبوءات قادمة تنذر باقتراب الساعة . . . مثل
انشقاق القمر وظهور الدخان . . . الى آخر ما ذكرنا .
فاذا لجأ القرآن الى الجدال فهو يجادل في بساطة وقيم
الحجة في احكام .

يقول عن الكافر الذي لا يصدق أنه سوف يبعث :

« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي
رميم . . . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل
خلق عليم »

(يس - ٧٨ - ٧٩)

« أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ؟ »

(ق - ١٥)

وليبرهن على وجود الخالق لا يلجأ الى صفحات من الخدقة
الفلسفية وانما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار في اشكال :

« أم خالقوا من غير شيء أم هم الخالقون »

(الطور - ٣٥)

وما زال الاشكال باقيا بالرغم من خمسة آلاف سنة من تطور الفلسفة . . وما زال السؤال بلا جواب .

فاذا أراد أن يشرح للناس الحقيقة الفلسفية الاولى بأن لكل شيء مظهرا زائلا وجوهرا باقيا فانه لا يبني حبائل من المنطق ولا شراكا من الحجج كما يفعل الفلاسفة المحترفون وانما هو يستدرجك الى الحقيقة بمثل بسيط :

« فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال »

(الرعد - ١٧)

فاذا أراد أن يفهم ويلجم ألقى بمثل آخر .

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقلوه منه ضعف الطالب والمطلوب »

(الحج - ٧٣)

وهو مثل ما زال معجزا للعلم والعلماء بعد الف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا .

فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوانها وتفاهتها ؟

واذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله اليك فمن يستطيع ان يرد لك تلك الحياة .

بل انها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك . . فان عباقره الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فورا الى سكر بفعل الخمائر الهاضمة .

• فما اضعف الطالب والمطلوب •

ما اضعف عبقرى الليمياء •• وما اهون الذبابة •• وما اتفه
ذرة من النشا •• فى عالم هائل بلا حدود •• بل عوالم وافلاك
متراميه خلقها الخالق الذى احاط بكل شىء علماً •

بهذه البساطة المعجزة الملهمة يتعرض القرآن لأعقد القضايا،
فيوصلها لأبسط الازهان •

والنفس فى القرآن تموت شأنها شأن البدن :

« كل نفس ذائقة الموت »

(آل عمران - ١٨٥)

« وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله »

(آل عمران - ١٤٥)

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق »

(الانعام - ١٥١)

والنفس فى القرآن هى مجمل الرغبات والغرائز والاهواء،

« ان النفس لامارة بالسوء »

(يوسف - ٥٣)

« وكذلك سنولت لى نفسى »

(طه - ٩٦)

ويمكن ان تأتى بمعنى النفس المتعالية اللوامة ••

« لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة »

(القيامة - ٢)

ولكن الروح فى القرآن تشير النفس •• وحتى التسرى الالهى
الباقى الذى لا يجزى عنه قدر الموت

• ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم
من العلم الا قليلا •

(الأشراف - ٨٥)

والروح في الفلسفة لغز •• وهي أمر لا يمكن اثباته
بالشواهد والأدلة الحسية على وجه القطع •• ولا يمكن انكاره
الا تعسفا •• ولا يمكن تجاوزه الا جهلا ••

وهي تبقى بعد ذلك قضية القضايا التي يقف أمامها علمنا
المحدود مكتوف اليدين •• وهي أعصى بكثير من قضية وجود
الجانح ••

وما قاله القرآن في قصة الخلق وفي السماوات والارض وفي
الغيب وفي الاخلاق والتشريع والسنياسة والحرية والمسئولية
والعبادات ذكرناه بالتفصيل في المقالات السابقة ولا داعي
للتكرار ••

والذين يكتبون عن اعجاز القرآن يعدون دائما تلك الحثيات
من تنبؤ القرآن بما لا نعلم من أمر مستقبلنا ورواياته لتاريخ
ما لا نعلم من أمر ماضينا الى جانب تلك الموافقات العجيبة مع
علوم عصرية متأخرة جاءت بعد نزول آياتها بكثير من ألف
عام •• الى جانب الكلام باحاطة في كل ما يشتمل من أمور
الحكم والاخلاق والتشريع وما وراء الطبيعة ••

ولكنني أرى أن اعجاز القرآن هو بالدرجة الأولى ما يستثيره
في القلب من احساس غامض •• لمجرد أن تصطف الحروف في
السمع بهذا النمط الفريد •• ذلك العزف بلا آلات وبلا قواف
وبلا بحور وبلا أوزان

حينما نصغي الى ما يقوله زكريا لربه في سورة مريم:

« رب اني وهن العظم نني واشتعل الرأس شيبا ولم
أكن بدعائك رب شقيا »

(مريم - ٣)

أو نستمع الى كلام المسيح فى المهد :

« انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ٠٠ وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا »
(مريم - ٣٠ - ٣١)

أو تلك الجملة الموسيقية التى تتحدث عن خشوع الرسل :
« اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا »
(مريم - ٥٨)

أو تلك النعمة الرهيبه التى تصف اللقاء بالله يوم القيامة :
« وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما »
(طه - ١١١)

أو ذلك الايقاع الرحمانى الذى يخاطب الله به نبيه محمداً فى موسيقى عذبة تملك شغاف القلب :

« طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسماوات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى »
(طه - من ١ الى ٨)

فاذا تحول القرآن الى الحديث عن المجرمين وما أنزل بهم من عذاب ٠٠ تحولت الموسيقى الى أصوات نحاسية تصك الأذن وتحولت الكلمات الى جلاميد صخر وكأنها رجم .

« انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر »
(القمر - ١٩ ، ٢٠)

فاذا سبحت الملائكة طالبه من الله المغفرة للمؤمنين سألت
الكلمات كأنها سبائك الذهب .

« ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا
واتبعوا سبيلك »

(غافر - ٧)

فاذا جاء الانذار بالساعة . . فان الهول والشؤم يطل من
الكلمات المتوترة والعبارات المشدودة :

« وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين
ما تلتظمين من حميم ولا شفيع يطاع »

(غافر - ١٨)

ثم العتاب وأى عتاب حينما لا ينفع العتاب :

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك
فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك »

(الانفطار - ٦ - ٧ - ٨)

والبشرى . . حينما تبشر الملائكة مريم بميلاد المسيح :

« يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى
ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

(آل عمران - ٤٥)

ثم ذلك الصراخ فى الاذن بتلك الكلمة العجيبة التى تشبه
السكين :

« فاذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »

(عبس من ٢٣ الى ٢٧)

ذلك التشكيل والسبك والتلوين فى الحروف والعبارات فى

محصلاً .. هو نسيج وحده .. بلا شبيهه .. من قبل أو
من بعد .

كل ذلك يتم في يسر شديد لا يبدو فيه أثر اعتمال وافتعال
واعتساف .. وانما تسيل الكلمات في بساطه شديدة لتدخل
القلب فتثير ذلك الاحساس الغامض بالخشوع من قبل أن
يتيقظ العقل فيحلل ويفكر ويتأمل .. مجرد قرع الكلمة
للأذن وملامستها للقلب ، تثير ذلك الشيء الذي لأجد له تفسيراً
هذه الصفة في العبارة القرآنية الى جانب كل الصفات
الآخري مجتمعة هي التي تجعل من القرآن ظاهرة لا تفسير لها
فيما نعرف من مصادر الكلام المؤلف ..

ان أقصى ما في استطاع مؤلف أو أديب أن يعبر عن نفسه
أو يخبرك عن نفسك وعن بيتك ومجتمعك .. أو يروي لك
تاريخ ما حفظه التاريخ . أو يحدس لك المستقبل من شواهد
ودلالات الحاضر .. في عبارة أقصاها أن تكون قصيدة شعر أو
مقامة أو قصة أو مسرحية .

أما القرآن فهو يختلف عن كل هذا .. وهو معجزة لأنه
يخبرك عن ماض لم يورخ ويتنبأ بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه
الشواهد .. ويدلك على علوم لم تعلم بعد .. وعن غيب
متخجب مطمئن لم يكشف الا لقله من المخصوصين من أهل
التصوف .. فاذا رأى هؤلاء فهم يرون ما يوافق كلمة القرآن
وإذا طالعوا فلا يطالعون الا ما يطابق أسراره ..

ثم هو يقدم اليك حكمة الازل ودستور الحياة الامثل وفلسفة
في الاخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة وفي المعاملات
وفي الزواج والمعاشرة والحرب والسلام وشرائع العبادات في
أسلوب منفردي وعبارة شامخة البنيان وجمال بلاغي هو نسيج
وحده لا هو بالشعر ولا بالمقامة المنثورة .. ليس له شبيهه
سابق ولا تقليد لاحق .. يلقيه الوحي في تحد باق على
الأعصر والدهور :

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة »

(البقرة - ٢٣ - ٢٤٠)

هكذا يتحدثانا القرآن أن نقلد ولو سورة ثم يقول لنا يقينا أننا لن نفعل . . وهو بذلك يورد خبرا صادقت عليه الأيام والسنون . . فلم يحفظ لنا التاريخ على مدى قرابة ألف واربعمائة سنة تقليدا واحدا للقرآن رغم كثرة حساده وأعدائه ومازال التحدي قائما - ومازال القرآن يفضي بأسراره ويكشف لنا مكنوناته فيزداد اعجازا .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

(فصلت - ٥٣)

وهو تحد آخر بأن مستقبل الأيام سوف يصادق على آيات مازلنا نقرأها على أنها أسرار مطلسة وغيوب محجبة .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »

(النساء - ٨٢)

إنه الانضباط والاحكام في كل لفظة وفي كل حرف . . . لا تتقدم كلمة على كلمة الا بسبب ولا تتأخر كلمة عن كلمة الا بسبب . . . وكمثل بسيط نجد أن القرآن يذكر السمسم مقدما على البصر في عديد من الآيات . . . وهي مسألة يعرف بها الآن علماء الفسيولوجيا والتشريح فهم وحدهم يدركون أن جهاز السمسم أرقى وأعقد وأدق وأرهف من جهاز الابصار ويمتاز عليه بادراك المجردات كالموسيقى وادراك التداخل مثل حلول عنة نغمات داخل بعضها البعض مع القدرة على تمييز كل

نعمة على انفراد كما تميز الام صوت بكاء ابنها من بين زحام
هاثل من آلاف الاصوات المنداخلة . . يتم هذا في لحظة زمن . .
أما العين فهي تتوه في زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها ،
يتوه الابن عن عين أمه في الزحام ولا يتوه عن سمعها .
والعلم يمدنا الآن بآلف دليل على تفوق معجزة السمع على
معجزة البصر .

ولم يكن هذا العلم موجودا أيام نزل القرآن .
ومع ذلك يذكر لنا القرآن السمع مقدما على البصر بطريقة
حلقية وفي أكثر من سبعة عشر موضعا .

« وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون »

(النحل - ٧٨)

« أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت »

(يونس - ٣١)

« وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة »

(الأحقاف - ٢٦)

« حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم »

(فصلت - ٢٠)

« أسمع بهم وأبصر يوم ياتونا »

(مريم - ٢٨)

« وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة »

(المؤمنون - ٧٨)

« ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاه »

(الاسراء - ٣٦)

« وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم
ولا ابصاركم »

(فصلت - ٢٢)

« فل رأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم »

(الانعام - ٤٦)

« ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم »

(البقرة - ٢٠)

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم »

(النحل - ١٠٨)

وببدو هنا من تقديم القلب أن الترتيب هو ترتيب

تفاضل .

«فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفندتهم من شيء»

(الأحقاف - ٢٦)

« أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »

(محمد - ٢٣)

« ان الله كان سميعا بصيرا »

(النساء - ٥٨)

« أنا خالقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه

سميعا بصيرا »

(الانسان - ٢)

« ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »

(الشورى - ١١)

« والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير »

(المجادلة - ١)

بهذا التكرار المتعمد يذكر القرآن السمع مقدما على البصر
وأن النظر العامية الى الامور تنظر الى البصر والابصار

باجلال أكثر من السحاب وزعم أن علوم التشريح والفسيولوجيا التي
اهتدت إلى الحقيقة لم تكن معروفة آنذاك .

اننا اذن أمام كلمات مصيغوفة بالحروف ووقه وانضباط
« كتاب أحكمت آياته » لا تتقدم كلمة على كلمة الا بسبب
ولا تتأخر الا بسبب .

وأحيانا يكون انتقاء الكلمة لتتوافق مع التعبير معجزة بيانية
في ذاتها . . . كما يقول القرآن عن الرياح :

« وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء
فأسقيناكموه وما أنتم به بخازنين »

(العجر - ٢٢)

هذه الصفة بأن الرياح لواقح تسندعى وقفة تأمل طويله .
فالرياح الباردة نثر سحابا . . . وهي تدفع السحب المكهربة
إلى لقاء بعضها البعض . . . تلقى بالسحابة السالبة التكهرب
بين أذرع سحابة أخرى موجبة التكهرب فيحدث البرق والرعد
ويسقط المطر . . . وما أشبه ما يحدث بالتلقيح .

فهي تلاقح بين السحب فيكون برق ورعد ومطر .

وينزل المطر على الأرض فيخصبها . . . وهو تلقيح من نوع
آخر بين الماء والأرض . وتحمل الرياح حبوب اللقاح من زهرة
لتلقى بها إلى مبيض زهرة أخرى فيكون تلقيح من نوع ثالث
هذه المرة . . . تلقيح بالمعنى الحرفي للآية .

فنحن أمام كلمة صادقة مجازا وصادقة حرفيا وعلى أي
صورة قلبتها تصدق معك وهي بعد هذا كلمة جديدة وغريبة
وصفة مبتكرة . . . حينما توصف بها الرياح وهي من الناحية
الجمالية الإيقاعية ذروة . . . وفي النطق عذبة : « وأرسلنا
الرياح لواقح » تنطقها وتلوها في فمك فتستوقف السمع
وتطرب الأذن .

وكل هذا العلم التفصيلي في تكهرب السحاب وانتقال
حبوب اللقاح لم يكن معلوما أيام نزول الآية .

وحمل المفسرون معنى الكلمة على أنه مجاز .. فالرياح تثير
السحاب وتسقط المطر على الارض فتخصبها .. فهي لواقع
بالمعنى المجازى .

ولكن العلم وضع أيدينا على كنوز البيان في داخل هذه
الكلمة فاذا بالصدق فيها مجازى وحرفى وجزئى وكلى .. واذا
بانتقائها في موضعها معجزة من معجزات الاحكام والدقة في
البيان القرآنى .

ومثل آخر .. هذه الآية من سورة العنكبوت :

« مثل الذين اتخلوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
اتخلت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا
يعلمون »

(العنكبوت - ٤١)

فهنا نرى القرآن يختار صفة التأنيث حينما يتحدث عن
العنكبوت فيقول : « كمثل العنكبوت اتخلت بيتا »
وقد كشف العلم مؤخرا أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج
البيت وليس الذكر وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام
نزول القرآن .

والحقيقة الثانية هي وصف بيت العنكبوت بأنه اوهن
البيوت .

ولم يقل القرآن خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت وانما
قال بيت العنكبوت وهي مسألة لها دلالة .. ولها سبب .
والعلم كشف الآن بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من
مثيله من الصلب ثلاث مرات .. وأقوى من خيط الحرير ..
وأكثر منه مرونة .

فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت
وافية بالغرض وزيادة .. ويكون بالنسبة له قلعة أمينة
حصينة .

فلماذا يقول القرآن : « وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت »
ولماذا يختم بكلمة : « لو كانوا يعلمون »

لا بد ان هناك سرا .

والواقع ان هناك سرا بيولوجيا . . كشف العلم عنه فيما
كشفت لنا مؤخرا . فالحقيقة ان بيت العنكبوت هو ابعده
البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من امان وسكينة
وطمأنينة .

فالعنكبوت الانثى تقتل ذكرها بعد ان يلقيها وتاكله . .
والابناء ياكلون بعضهم بعضا بعد الخروج من البيض ،
ولهذا يعمد الذكر الى الفرار بجلده بعد ان يلقي انثاه ولايحاول
ان يضع قدمه في بيتها .

وتغزل انثى العنكبوت بيتها ليكون فخا وكمينا ومقتلا لكل
حشرة صغيرة تفكر ان تقترب منه .

وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل ويلتهم . .
انه ليس بيتا اذن ، بل مذبحه يخيم عليها الخوف والتريبس ،
وانه لاوهن البيوت لمن يحاول ان يتخذ منه ملجأ . . والوهن
هنا كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة . وهذا
شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيناً ونصيراً .

« مثل الذين اتغلوا من دون الله اولياء (أنصارا) كمثل
العنكبوت اتغلت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت
لو كانوا يعلمون »

(العنكبوت - ٤١)

ذروة في دقة التعبير وخفاء المعاني ومحكم الكلمات وأسرار
العلوم مما كان معروفاً أيام النبي ومما لم يعرف الا بعد موته .
بألف عام . . اعجاز قطعي لاشك فيه يتحدى العقل ان يجد
مصدراً لهذا العلم غير المصدر الالهي .

وفي سورة الكهف نقراً مثلاً آخر حينما يروي القرآن عن
رقدة أهل الكهف :

« ولبتوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا »

(الكهف - ٢٥)

ونعلم الآن بالحساب الفلكي ان الثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسي تساوي ثلاثمائة وتسعا بالتقويم القمري (باليوم والساعة والدقيقة) . . وكان التقويم المتبع أيام نزول الآيات قمريا فلزم ان يقول القرآن ان السنوات قد ازدادت تسعا - وهو الفرق بين التقويمين وهذا سر لم يعرف الا الآن .
ومثل آخر في سورة القيامة :

« ايحسب الانسان ان لن نجوع عظامه ، بلى قادرين على ان نسوي بنانه »

(القيامة ٣ - ٤)

يقول الله هذا الكلام في مقام التحدى مشيرا بان هناك معجزة كبرى في تسويته للبنان اكبر من احياء العظام وهو امر لم يكشف سره الا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة حينما عرف ان لكل انسان بصمة خاصة به رسمت على بنانه . . لا يتفق اثنان في بصمة واحدة منذ أيام آدم حتى التوائم .
وهي أمثلة من عشرات الامثلة لا تفسير لها الا أنها جاءت تنزيلا وانها علم الهى وليست علما بشريا . . فانت امام دقة واعجاز واحكام وعلم شامل .

ما وقفت امام كلمة قرآنية وحاولت ان تنقلها من مكانها او تستبدلها حتى أدركت الاستحالة . . وحتى أدركت انك امام طراز من الضرورات اللغوية والعلمية يثير الدهول . . وانك امام لون من ألوان الصدق المطلق .
وبعض أسرار الكلمات فهمناها . . وكثير من الاسرار مازالت خافية علينا .

كتاب لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذياله .

فاذا أضفنا الى كل هذا أن ذلك القرآن المذهل أتى به رجل
ألمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. بدوى راعى غنم فى بيئة
بدوية من أجلاف البدو فى صحراء جرداء مقطوعه الصلة
بالحضارات والعلوم .. فنحن أمام معجزة حقيقية لا يجادل
فيها الا مكابر معاند مستغلق المشاعر معصوب العين والوجدان
عاقب نفسه بنفسه اذ حجب عن روحه اشعاع الرحمة والحنان
والرأفة الذى يشعه ذلك الكتاب الكريم .. رب فلتكن بهرحيما
ولتفتح منه القلب : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى
القلوب التى فى الصدور » .

(انتهى)

الفلاف بريشة الفنان محمد حجي

منتدی سور الأزبکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

♦ صدر للمؤلف ♦

(مقالات)	الله والانسان
(مقالات)	ابليس
(مجموعة قصص قصيرة)	اكل عيش
(مجموعة قصص قصيرة)	عنبير ٧
(مجموعة قصص قصيرة)	شلة الانس
(مجموعة قصص قصيرة)	رائحة الدم
(دراسة)	اينشتين والنسبية
(دراسة)	الاحلام
(دراسة)	لفز الحياة
(دراسة)	لفز الموت
(رواية)	المستحيل
(رواية)	الافليون
(رواية)	العنكبوت
(رواية)	الخروج من التابوت
(رواية)	رجل تحت العنبر
(مسرحية)	الزلزال
(مسرحية)	الانسان والظنل
(من رسائل القراء)	اعترفوا لي
(من رسائل القراء)	٤٥ مشكلة حب
(من رسائل القراء)	اعترافات عشاق
(عن رحلة في السودان وكينيا وتنجانبيغا)	الغابة
مقالات	يوميات نص الليل
مقالات	في الحب والحياة
محاولة لفهم عصرى	القرآن

تحت الطبع

رحلة في الصحراء الكبرى	الصحراء
مسرحية	غوما
من رحلة المؤلف في أوروبا	حكايات مسالمة